ANTON CHEKHOV

روايات

أنطون تشيخوف

نصر لا لزوم له

ترجمة: هبة حمدان



روايات

أنطون تشيخوف

نصر لا لزوم له

ترجمة: هبة حمدان

مراجعة وتدقيق: محمّد سعيد



تصدير

الكاتب هو انطون بافلوفيتش تشيخوف، المولود يوم 17 من يناير (كانون الثاني) 1860م، في بلدة فقيرة اسمها تاغانروغ وهي ميناء على بحر آزوف جنوب العاصمة الروسية موسكو. أبواه هما التاجر التاغانروغي بافل يكوروفتش تشيخوف، وأمه هي يوجينا ياكوفليفنا، وكلاهما من أتباع العقيدة الأرثوذوكسية... أما جده فكان قنّا في مقاطعة فورونيش في أواسط روسيا. وقد استطاع هذا الجدّ بعمله وزهده أن يقتصد 3500 روبل، وأفلح عام 1841م، أي قبل إلغاء الرق بعشرين عاماً، أن يشتري بذلك المبلغ حرية أسرته. انتقلت الأسرة من مقاطعة فورونيش إلى جنوب روسيا، فعمل والد أنطون تشيخوف بافل يكوروفيتش كاتباً في مدينة تاغانروغ، ثم افتتح حانوت بقالة بعد توفير رأسمالها سنواتٍ طويلة...

التحق تشيخوف بمدرسة يونانية في سنواته الدراسية الأولى، فحاز على شعبية واسعة بين زملائه في المدرسة، بعد أن حرر المجلة الفكاهية المدرسية (الأرنب)... ولما بلغ المرحلة الثانوية، كان يحرص على حضور المسرحيات والعديد من العروض الإثرائية... في عام 1876 أفلست تجارة أبيه فعاشت العائلة في هوة عميقة من الفاقة والتعاسة، فانتقلت عائلته إلى موسكو بحثاً عن حياة

جديدة، إلا أن كاتبنا ظل في تاغانروغ في محاولة منه ليكسب رزقه وليواصل تعليمه الثانوي... في بادئ الأمر فقد أخذ يكتب مقالات صغيرة للصحف والمجلات المحلية كسباً للمال... وفي عام 1879 أتم تشيخوف تعليمه الثانوي، والتحق بعائلته في موسكو، وانتسب إلى كلية الطب التابعة لجامعة موسكو... وبعد تخرجه من كلية الطب بدأ مزاولة عمله طبيباً حتى سنة 1892م.

عمل تشيخوف طبيباً وكاتباً مسرحياً ومؤلفاً قصصياً ذا طابع روسيّ، حتى صار ينظر إليه باعتباره من أفضل كتاب القصص على مدى التاريخ ومن كبار الأدباء الروس، فقد كتب المئات من القصص القصيرة التي اعتبر الكثير منها إبداعات فنية كلاسيكية...

أمضى أنطون تشيخوف الأعوام الأربعة والأربعين في حياة مشرّفة، ما بين الطب والأدب، اللّذين عكسا صورة صادقة للحياة التى عاشها... فحياته بوصفه طبيباً، تجسدت بالخدمة الإنسانية، فعندما يمارس الطب كان يرفض الأجور التى يقدمها إليه الفلاحون الفقراء، ولما انتشر وباء الكوليرا في روسيا فإنه هجر الكتابة وعمل مشرفاً صحياً في إحدى اللجان الطبية لمكافحة المرض... وكان يسافر إلى القرى المجاورة ويجمع الناس ليلقى عليهم محاضرات صحية... كما بادر إلى نجدة سكان مقاطعة نوفجورد عندما أصابتهم المجاعة، وشكّل منظمة لجمع الإعانات بهدف شراء الأطعمة والأبقار والخيول للفلاحين الفقراء... أما على الصعيد الأدبي، فقد قدم تشيخوف كتابات إبداعية أثّرت في تطور القصة القصيرة الحديثة، بالاستخدام المبتكر للشعور الإنساني؛ فقد جعل على كاهله أن يعتصر من عروقه دماء العبودية... يُعَدّ تشيخوف سيدَ القصة القصيرة في العالم بلا

منازع، إلى حد أنه أصبح معياراً للكتابة السردية، لأنه استطاع تحطيم الأعراف الأدبية وغير الأدبية وذلك بخروجه عن القواعد، مثل البداية والنهاية ومواصفات الشخصية والحبكة القصصية؛ كذلك البساطة والاختصار والغموض في آن واحد..

كانت مؤلفات تشيخوف فيضاناً من الابتكار الدائم، فلا يجد القارئ فيها قصتين متشابهتين، لا في الشخصيات ولا في الأحداث... فإذا به يلمس رؤية الكاتب العميقة للرجال وللنساء، وقدرته على التركيز وتحوير القصة الغامضة إلى قصة واضحة إنسانية في صفحات قليلة... كان تشيخوف متواضعاً إلى درجة أنه تصور أن أعماله ستُقرأ سبعَ سنوات فحَسْب بعد وفاته؛ ولكنه أصبح ظاهرة في الثقافة العالمية بزيادة عدد قرائه، فكان لمسرحياته تأثير عظيم على دراما القرن العشرين... فبعد مرور كل هذه السنوات على رحيل تشيخوف، يظل هذا الرجل حالة فريدة للإبداع العالمي المصورة للكينونة الإنسانية، فتشيخوف هو أحد الكتاب الذين لمسوا الحزن الإنساني واستطاعوا أن يستشعروا آلام الفقراء ومعاناتهم، وأن يرسموا أحلاماً بديعة لمستقبلهم...

أصيب انطون تشيكوف بداء السل وهو في سنّ الرابعة والعشرين، إلا أن المرض اشتد عليه لاحقاً في عام 1888م فانتقل إلى شبه جزيرة القرم للعلاج... ظل تشيخوف يعاند المرض ويقاومه حتى تمكن منه المرض عام 1904و وفارق الحياة وهو في سن الرابعة والأربعين في أحد المراكز الاستشفائية في الغابة السوداء في جنوب ألمانيا، ودفن في مقبرة دير نوفودفيشي في موسكو...

أما قصتنا هذه، فهي ترجمة لقصة (Unnecessary Victory) نقلاً عن اللغة الإنجليزية، وتعتبر هذه القصة هي القصة الوحيدة التي راهن عليها تشيخوف من بين جميع قصصه، حين راهن منتقديه بقدرته على كتابة قصة ستجعل جميع القراء في زمنه يظنّونها من كتابات الأديب الهنغاري مافير إيوغاي... وكان له ما راهن عليه، فقد ربح الرهان، بأن كتب لنا قصة ترسم الأفرادَ، والأهواءُ متصادمةٌ عنيفة، والنزاعاتُ بين الحيوات الغنية والفقيرة مفعمة بالأحداث الواقعية المثيرة... لاقت هذه القصة نجاحاً كبيراً، وعلى أساس هذه القصة (نصرٌ لا داعِيَ له) رسمت العديد من السيناريوهات السينمائية لأفلام كثيرة منها: نهاية آل فونيتش، ومغنية الشارع، وإيلغا، ونصر لا داعِيَ له (Unnecessary Victory).

ولا تزال هذه القصة حتى اليوم من أكثر قصص الكاتب تشيخوف نقلاً وتداولاً في اللغات الأجنبية، ولحفظ هذه النسخة من الزوال، ولأهميتها من بين قصص الكاتب العظيم تشيخوف، فيسرّنا أن نقدم لكم هذه الترجمة إلى اللغة العربية نقلاً عن اللغة الإنجليزية.

هبة حمدان

1

عانقت الشمس بشعاعها الأحمر السماء والسحاب، وهي تهبط في الأفق، اتجه تسفيبوبيتش وإيلغا سوباتشيزوبكي إلى بستان آل كونت غولداغوين وسط هذا الجو الحارّ. إنه شهر حزيران (يونيو)؛ حيث يكون المناخ حاراً جافاً، والأرض تتصدع ظمأً ويتمايل الغبار الأجدب على الطريق كأنه نهر، والرياح إن وجدت تنفح حارةً جافة، ويسيطر الصمت الموحش على المكان طوال الوقت فيشعر المسافر بالكآبة والوحدة. لكن.. الحقول الخضراء والسهوب تزهو تحت أشعة الشمس الملتهبة فلا تذبل ولا تجف، فهذه الحقول والكروم المزروعة على ضفاف الأنهار ومجاري المياه تظل تتباهى بزخرفها ونضارتها طوال فصل الربيع حتى الخريف، فتصبح وجهةً للسيّاح وملجأً للحيوانات، للتمتع بالظلال الباردة وبالهواء العليل المنعش.

دخل تسفيبوبيتش وإيلغا طريقاً ضيقة طويلة اصطفت الأشجار على جانبيها، كانت هذه الطريق تقسم البستان إلى شطرين متساويين، وتصل بين مدخل البوابة المؤدي إلى السهوب ومدخل البوابة المؤدي إلى البستان.

مد تسفيبوبيتش بصره متأملاً في الطريق وقال:

تذكرني هذه الطريق بالعصا التي كنت أُضرب بها على يديّ في المدرسة.

بدأت الطريق الضيقة بالاندماج بالسُّهوب الخضراء في الأفق. كانت ضيقة لا يتعدى عرضها مترين، ولا تصل إليها أشعة الشمس، فقد رُصَّت جوانبها بالأشجار، حيث تتلاقى أغصان هذه الأشجار وظلالها لتُكوّن نفقاً طبيعياً من فروع البلوط والزيتون والزيزفون والحور، وكأن تسفيبوبيتش وإيلغا قد ولجا إلى ممرّ مسقوف.

كان تسفيبوبيتش سميناً قصير القامة يقطر عرقاً، فالحرّ شديد، وبات وجهه كحبة طماطم حمراء، فيتصبب العرق منه فيمسحه بقميصه، يُسمع صوت حَشْرجة نفسه عالياً كمحركِ مركبةٍ قديمةٍ.

غمغم تسفيبوبيتش، وهو يفتح أزرار سترته بأصابعه الغليظة:

- تمتعي بهذا الهواء البارد يا صغيرتي، فكأننا ارتحلنا من حر الجحيم إلى برودة الجنان.

كان وجه إيلغا شاحباً يلمع من قطرات العرق، المنزلقة من جبهتها العريضة، مروراً بأنفها المدبّب، وشفتيها الورديتين، كما يظهر عليها الإرهاق والتعب، فتعجز قدماها عن حملها؛ ومِنْ على كتفها تتدلى قيثارة ملقية بثقلها فوق هذا الجسد المُتعب، لكن هذا لم يمنعها من الابتسام والتنهد بعمق، والاستمتاع بهذا النسيم الرائع، فنزعت خُفَّيْها عن قدميها الصغيرتين ومشت بشغف حافية فوق الرمال الباردة.

- ما رأيكِ أن نجلس يا عزيزتي؟ فهذا ممرٌّ طويلٌ بطول ألْسِنَةِ العوانس قد يمتد ثلاثةَ أميال.

- لا أريد الجلوس، فلنبدأ بالسير يا أبي، فإذا جلسنا فسيكون النهوض صعباً، سنستريح في نهاية الممر.

- إذن، حسناً... إنه عيد ميلادك يا عزيزتي، لو كان القدر مُهْدياً إليك هدية فأيّ شيء تطلبين؟

- سأتمنى طعام غداء.... هديةً من القدر.

- يا لهذه الهدية - هئ - هئ - لقد طلبت الكثير! - هئ - هئ - أليس هذا مبالغاً فيه يا عصفورتي؟ ألن تطلبي العشاء أيضاً؟

- لقد جفّ حلقي من أكل الخبز واللحم الجاف، فقد مضى زمنٌ بعيد منذ أن تناولت شيئاً ساخناً، فلو خُيّرت اليوم بين عشر سنين من عمري أو وجبة من حساءٍ ساخن كهدية، فسوف أختار الحساء الساخن.

- لقد أحسنتِ الاختيار! فأسوأ حساء سيكون أفضل من عيشتنا هذه مرات عديدة.

- نعم سأختار الحساء الساخن وسأتناوله بنهمٍ شديد! فأنا أكاد أموت جوعاً.

رمق تسفيبوبيتش إيلغا بنظرة عطف، وتَنَهَّدَ محدثاً صفيراً من بين شفتيه الممتلئتين، -فلطالما كان يحدث أصواتاً كالصفير، لا سيما عندما يُقلقه أمر أو يغرق في تفكيرٍ عميق-.

فكّر قليلاً ثم نظر إلى إيلغا بعينيه الباسمتين اللتين تطلّان من تحت حاجبيه الغليظين:

- صبراً يا عصفورتي، يراودني شعورٌ بأن القدر سيهدي لك هدية مثيرة لاهتمامنا - ها - ها فنحن لم نتكبد عبثاً عناء هذه الرحلة إلى فناء الكونت غولداغوين النبلاء - ها ها- سندخل هذا المنزل ونعزف الموسيقى، عندها سيغرقوننا بكرمهم وسنملأ جيوبنا بالأموال، وسنملأ بطوننا بالطعام الشهي! - ها ها - دعينا نحلم يا إيلغا! فلا شيء مستحيل في هذا العالم! ولعل أحلامنا ستتحقق!

ابتسمت إيلغا وهي تعدل وضع القيثارة على كتفها، وأردف تسفيبوبيتش يقول:

- سيستمتع الكونت بعزفنا، ومن ثَمّ يا صغيرتي فلن يطردنا من فنائه وسيستمع إليك غولداغوين شخصياً متبسماً حتى لو كان ثملاً... أقسم لك إنه سيرمي إليك بقطعة نقود ذهبية! لامعة! - ها ها - ويالحظنا الرائع! سيكون الآن ثملاً بجانب نافذته، عندئذٍ فتيقّني أن تلك القطعة اللامعة ستكون لك - هئ هئ -

تعجبت إيلغا:

- وهل عليه أن يكون ثَمِلاً؟

- الثَّمِل ياعزيزتي أكثر ذكاء وطيبةً فهو يقدر الطرب والموسيقى، أوه يا لكمانى حلو الصوت! لولا وجود المخمورون في العالم لما تطورت الموسيقى! صلّي وابتهلي يا عصفورتي أن يكون المستمعون إلينا مخمورين!

فكرت إيلغا، «قد يكون أبي محقاً! فأغلب الذين يستمعون لموسيقانا ويقذفون لنا بالنقود هم سكارى، ولولاهم لكنت عانيت وأبي جوعاً أكثر». فقد كانا يعزفان معظم الأوقات أمام البارات، لا في الأحياء السكنية الراقية النظيفة ولسكانها المتيقظين، فمعظم من يستمتع بعزفهما كانوا ذوي وجوه مترهلة وأنوف ضخمةٌ حمراء، لا ينطقون إلا بالكلام َالبذيء أو غير المفهوم أحياناً!

شغل هذا الموضوع تفكير إيلغا، فشعرت بالحزن والألم، فقد أدركت لماذا يعيرُ هؤلاء السكارى اهتماماً بغناء والدها الذي يبدو كالنحيب، ولدعاباته السخيفة أكثر من غنائها، ولم يطلبون منها الرقص، ففي أغلب الأحيان كانت تتوقف عن الغناء، وتستبدل أغانيها برقصٍ سخيف على نحيب كمانِ والدها؛ وما من أحد منهم ولّى اهتمامه بمن كتب هذه الأغاني التي غنتها بإحساسٍ رائع، فأغنية الفرسان الثلاثة تحظى بنفس الاهتمام الذي تلقاه فقرة غنائية راقصة تافهة! فغير المخمور ينظر إليهما بازدراء لأنهم يظنونهما متسولين، أما المخمور فيسمح لهما بالعزف والغناء ليخففا عنه الصداع.

أوصلت كلمات تسفيبوبيتش ابنته إيلغا إلى الحزن الشديد والاكتئاب، فاعترتها رغبة في البكاء وإيذاء نفسها بكسر أصابعها مثلا، ولكنها لا تُكسر حتى لو لفتها! لذا فقد اكتفت إيلغا بالبكاء.

غمغم تسفيبوبيتش:

- مرحباً يا منزل آل الكونت غولداغوين النبلاء.

نظر إلى مدخل البوابة المصنوع من نسيج دقيق يحيط به نبات الجلبان المزهر:

-يا لعجبي! شخصٌ بسيط ليس من النبلاء يختلط مع الأشخاص النبلاء، نبلاء أوغاد! أن تكون لا شيء أفضل من أن تكون وغداً! ففي القرن السابع عشر ارتبط الكونت كارل غولداغوين بامرأةٍ لم تكن من النبلاء، بعد ذلك مات من تأنيب ضميره! أما أخوه موريتس فقد فرح فرحاً شديداً عندما أجاز له الأبُ المبجل أن يطلّق زوجته التي كان قد نَقَلَ إليها السل! انظري يا عصفورتي لهذا المنزل؟ لو اطّلعتِ على تاريخه لصرخت: شخص وغد، ولانهلت عليه، مثل الرّوس، بالسباب الشديد حتى لو كنت لا تعرفين الكثير عن السباب! أتتذكرينِ الروس؟ كلامهم قاسي كبردهم، فلنقم بتفقّد الآلات.

هَيّأ تسفيبوبيتش كمنجته، وأزالت إيلغا الغبرة عن القيثارة.

-نحن قادمون وكلنا إيجابية وتحدي، استخرج حظك من العدم!

استقام تسفيبوبيتش وإيلغا بقواميهما، ورسما بسمةً على وجهيهما، وولجا بنشاط إلى باحة منزل الكونت، كان المنزل مليئاً بالعمال على الرغم من الحر الشديد، وهناك ما يقارب العشرين عاملاً بقمصانٍ زرقاء، يعملون بأقصى نشاطهم وكامل طاقتهم، لبسط باحة المنزل بالأسفلت، ويغشاهم السواد والعرق، وتتصاعد أدخنة بيضاء مزرقّة من ثلاثة مراجل.

دخل تسفيبوبيتش وإيلغا بنشاط إلى البيت وتفحصا نوافذه، ولاحظا شخصاً بقرب أكبر النوافذ، وكان وجهه أحمر اللون.

تمتم تسفيبوبيتش:

- إنّه الكونت! أمنيتي تتحقق! هو سكران.. هيا نبدأ!

عزفت إيلغا على قيثارتها، وضرب تسفيبوبيتش الأرض بقدمه ورفع كمانه على كتفه. اتجهت أنظار العمال إلى أنغام الموسيقى، واتسعت عينا صاحب الوجه الأحمر، وعبس، ولاحت خلف هذا الوجه الأحمر ملامح أنثوية، ثم ظهرت يدان، وفُتحت نافذةٌ أخرى عن آخرها، وصرخ أحدهم:

- اخرجا، اخرجا! من باحة المنزل! هيا أيها العازفان، اذهبا إلى الجحيم مع موسيقاكما!

ظهر ذو الوجه الأحمر من النافذة وأشار بيديه وصاح بصوتٍ أنثوي:

- اعزفا، اعزفا.

ترك العمال أشغالهم واتجهوا إلى إيلغا ووالدها واقتربوا منهما ليتمكنوا من رؤية إيلغا وهي تغني وتعزف على قيثارتها:

(في العالم دولٌ عديدةٌ، ساطعةٌ غنيةٌ وعظيمة،
لكن هنغاريا هي الأعظم، خضرتُها وجوُّها ومراعيها،
أكلها ونبيذها هما الألذّ، وثيرانها ذات قرون طويلة،
إيلغا تُعَظِّمُ هنغاريا، وتقدم لأناسها التحية)

تبسم أحمر الوجه ونظر بشغف إلى إيلغا، استمرّت إيلغا بالغناء:

الناس فيها طيبونَ وشجعانٌ وجميلون،
لديهم أجمل الزوجات الحسناوات الشقراوات،

شجعانٌ في الحروب،
فصيحون، تغبطهم الشعوب،
ليس فيهم عيوب، إلا عيب واحد فحسب،
لا يقدرون الأغنية، إلا التافهة الفانية،
تلك التي تفتقر إلى الإثارة،
ولهذا فحسب أنا أشفق على هنغاريا...

دنا أحد الخدم، وهو بقميص أحمر قصير، من إيلغا وقال بصوتٍ رخيمٍ:

- إن سعادة السيد بيختيرشتاي المحترم، أمَر أن تغني شيئاً أكثر إبهاجاً!

توقفت إيلغا عن الغناء، ولم تُتَحْ لها فرصة الرد.

- أكثر إبهاجاً؟ ممم... قل لفخامة السيد بيختيرشتاي سننفذ رغبته! وسيكون كرماً منه أن أتناقش معه في الموضوع!

خلع تسفيبوبيتش القبعة، ودنا من نافذة المنزل، وانحنى وقال وابتسامةً مرتسمة على وجهه:

- أتفضلون أغنيةً أكثر فرحاً؟

- أجل.

- أتحبون الأغاني الدبلوماسية؟ من كلماتي! إنها تعطي حلولاً لبعض أهم الأمور والمشاكل في أوروبا، ألكم المجد بالانتماء إلى الأمة المجرية يا سعادة السيد؟

نفخ السيد دخان التبغ من شفتيه وهزّها بلطف.

- وأنا أطلب من السادة الوطنيين الاستمتاع بعرضي، إنني أطمع بتواضعكم..

ثم التفت إلى العمال، وأثار اهتمامهم فدنوا منه أكثر.

بدأ تسفيبوبيتش الغناء بصوته الشبيه بصوت النحيب:

أتعرفون دولة النمسا؟ يا مُلّاك الأرض يا ساسة؟
أخبروني ما النمسا؟ إنها وجبةٌ دسمة،
تطمع فيها كلُّ دولة، تتصارع الدول دون جدوى للفوز بها،
لأن هنغاريا هي الأقوى..

- هيا.. هيا

أردف تسفيبوبيتش:

النمسا كطائرٍ بألف لون، بألفِ عضوٍ وألف عين،
عديدة الأرجلِ والأجنحة... لها رأس واحد هو المتحكم القائد،
رأسها ذو جمجمةٌ صلبة، تستعصي على كل وحش أراد أكله،
هذا الرأس هو هنغاريا، سيبقى اسمها عاليا...

- هيا... هيا

في العالم لغاتٌ عديدة، فرنسية وألمانية وروسية،
وهناك لغةٌ هنغارية، هي الأغنى والأكثر حكمة،
هل سألتم في فينّا عن أبي الهول فهو يتكلم الهنغارية؟

حلقت قطعة نقد فضية تلمع من نافذة السيد وارتطمت بحذاء تسفيبوبيتش وحلقت قطعة أخرى عند قدمي إيلغا. أخذ تسفيبوبيتش القطعة الفضية، وقال:

- أشكرك يا سيدي! أشكرك، سأحتسي النبيذ في صحة حضرتك، أقسم سأشربه بنَفَسٍ واحد، سأشرب في صحتك بحلقي وبقصبة التنفس! حتى لا يكون لدي وقتٌ للنَّفَس!

وانحنى تسفيبوبيتش رافعاً قبعته، حينذاك حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد تحول الوجه الأحمر إلى اللون القرمزي وصرخ الرجل وأغلق نافذته فجأةً، وتراجع العمال إلى الخلف وانتصبت قامتهم من التوتر. أشاح تسفيبوبيتش بقبعته إلى الخلف فاصطدم بشيء ما خلفه، فاستدار وجلس على الأرض. كان الذي خلفَه فرسٌ أسود اللون رائع المنظر، وقد حرن خوفاً من قبعة تسفيبوبيتش، وكانت تجلس على ظهر الفرس امرأةٌ جميلة طويلة القامة، رشيقة حسنة القوام، إنها زوجة الكونت غولداغوين المعروفة في كل هنغاريا، كانت تلقب قبل الزواج بالبارونة فون غيلينشترال.

نظر تسفيبوبيتش إلى هذه المرأة الحسناء التي تكاد تنفجر غضباً. هدّأت الحسناء حصانها، ولاحت بسوطها بكل قوتها وهي ترتجف غضباً وشرراً:

- أيها الوغد!

مال تسفيبوبيتش من قوة الضربة ووقع بجسده السمين على الأرض، واصطدم بحوافر الحصان الأمامية، وكاد أن يوقع زوجة الكونت عن صهوة حصانها، لم يستطع تسفيبوبيتش تجنب الوقوع، كانت الضربة قويةً أصابت جبهته وخده وشفتيه!

أما الفتاة الأخرى إيلغا الفتية الرائعة ذات الشعر الأشقر الكثيف فقد اعتلى وجهها غضب ويأس يصعب التعبير عنهما، فقد

تشنّج واعوجّ، وكشفت إيلغا عن أسنانها كالكلاب وتقدمت لتلتقط حجراً فلم تجد فرمت قطعتها النقدية الفضية على الكونتيسة، تحركت قطعة النقود بفعل الرياح واصطدمت بالمنزل. ساد الصمت برهةً، ثم لوحت الحسناء الغاضبة بسوطها، ولكن أوقفتها ملامح وجه إيلغا المُربكة فأنزلت سوطها ببطء وسارت باتجاه البيت والتفتت قائلةً:

- فليذهبا.

رفع تسفيبوبيتش جسده السمين عن الأرض ومسح الغبار عنه، واقترب من إيلغا العابسة مبتسماً والدم على وجهه:

- لا تتعجبي يا عصفورتي! ها ها لقد ضُرب والدك! وأين العجب في هذا؟ ليست أول مرة أُضرب فيها! ربما هي الحادية والأربعون! حان الوقت لنعتاد على ذلك!

ألقت إيلغا نفسها في حضن أبيها مرتعشةً باكيةً، فقال تسفيبوبيتش وهو يحاول منع قطرات دمه السائل أن تتساقط على إيلغا:

- يا لسعادتي! يا لسعادتي! عليّ أن أقدم الشكر لصاحبة السعادة! فكمنجتي سليمة! لم تحطّم!

حمل تسفيبوبيتش كمنجته بيدٍ، وطوق كتفي إيلغا بيده الأخرى، وأسرعا خارجيْن إلى الطريق المشجّرة.

2

وصل تسفيبوبيتش وإيلغا إلى نهاية الطريق المشجرة التي تؤدي إلى السهول الخضراء، كان تسفيبوبيتش يعرف هذا الممرّ جيداً، ففي نهايته وعلى الجهة اليسرى منه شجرُ الزَّان، فلو بدأت بعدِّ شجرِ الزَّان فستجد بين الشجرتين الثامنة والتاسعة ممرّاً مهجوراً يتمايل كالأفعى، حتى يصل إلى كنيسة صغيرة وبالقرب منها ماء.

وصل تسفيبوبيتش وإيلغا إلى شجرة الزَّان الثامنة، ثم دخلا الممرّ على جهة اليسار، كان الممرُّ محاطاً بشجرٍ وبأعشاب كثيرة ملتفةٍ من نباتات البردان والقِنَّب والشُّكران والقُرّاص؛ تابعا المسير، ونبات القرّاص يلدغ الأيدي والأعناق، والرائحةُ المنبعثة من الشُّكران والقنب تضيِّق الأنفاس. سارا عبر أنسجة العنكبوت وبين الجنادب والحشرات، أما الكبير من العناكب فكان يقوم بتلك القفزات الخطيرة من أكتافهما إلى الأعشاب! فقد أقلقا وهدّدا حياة الكثير من الكائنات هنا!

كانت الكنيسة الصغيرة تبعد ربع ساعةٍ عن الطريق المشجرة، وتظهر بارزةً على روضة بين الحشائش الطويلة، وقد اهترأت الجدران ونمت عليها الطحالب والعُلَّيْق، وانتصب على سقف الكنيسة صليب نحاسيٌّ، كان هذا الصليب دليلاً مرشداً بالنسبة إلى تسفيبوبيتش.

-آهٍ لو جفَّ الماء، سيكون هذا أسوأ من ضرب سياط الكونتيسة، فإن حلقي جافٌّ كالحجر.

لم يكن مجرى الماء قد جفّ، فبعد أن وصلا إلى الكنيسة ومسحا أنسجة العناكب عن أكتافهما، نسمت ريحٌ تحمل رائحة الرطوبة، وسمعا صوت مياه الجدول تجري، فلاحت ابتسامةٌ عريضةٌ على وجه تسفيبوبيتش وأسرع إلى إلقاء كمنجته وقيثارته أمام باب الكنيسة وأخذ يحوم عَجِلاً حول المكان يبحث عن الجدول:

- أسمعُ صوت خرير جدول الماء، أين هو؟ لا أذكر أيَّ طريقٍ تؤدّي إليه! يا لها من ذاكرة! ويا لي من ناكرٍ للجميل! لقد رويتَ عطشي مرّتين والآن أنا لا أذكر مكانك! هذا هو الإنسان: يتذكر مَنْ أساء إليه فحسب ولا يتذكر الإحسان! هئ هئ..

كانت إيلغا جديرة بتحديد مكان مجرى الماء -فقد كانت مرهفة السمع- لولا الغضب الشديد الذي تملّكها بسبب الإساءة التي لحقت بوالدها الضعيف، فقد كانت نظراتها تحيط بأبيها دون أن تدرك شيئاً، تجاهلت ضعفها وعطشها وتجاهلت كلّ شيء فقد سيطر الغضب والسخط عليها فكانت تسير وتعضّ على شفتيها.

استمر تسفيبوبيتش يحوم في المكان، يُنصت بأذنيه إلى صوت خرير الماء -فقد كانت إحدى أذنيه مصابة بالصمم- حتى أصبح صوت الخرير قريباً وبات التراب رطباً تحت قدميه، ثمّ صاح:

- لقد كان جدول الماء هنا! تحت شجر الزيزفون، كان هنا ثلاث شجرات منذ عشر سنين عندما شربت منه! لم يبقَ سوى

شجرة زيزفون واحدة! يا للأشجار المسكينة! ها هو الجدول، تعاليْ يا إيلغا فلنشرب من هذا الماء العذب.

انحنى تسفيبوبيتش وجلس على الأرض وألقى قبعته، وغطّس وجهه الأحمر المتوهج في الماء البارد المنعش، وكذلك فعلت إيلغا.

شرب تسفيبوبيتش الماء البارد ونظر إلى صورته المنعكسة على سطح الماء، والدّمُ يقطر من وجهه، فأراد أن يسخر من هذا الوجه المليء بالكدمات والجروح، لكنه توقف حين رأى وجه إيلغا العابس منعكساً على الماء، وقال:

- إيلغا يا عزيزتي، كفاك عبوساً وتكشيراً! لا أحبّ أن أراكِ حزينةً هكذا!

أزاحت إيلغا رأسها عن الماء ومسحت وجهها، واستطرد تسفيبوبيتش قائلاً:

- يا إلهي كفّي عن التكشير، تعرفين أنني لا أحبّ هذا العبوس! تغضبين وتعبسين كلما مررنا بشيء سخيف! كوني عاقلة يا صغيرتي، فالغضب حماقة فهو يجلب النحس والأمراض ويجعلك هزيلة ضعيفة! هيّا..

- لا يمكنني.. لا يملكون الحق بضربك على وجهك!

- أعرف هذا يا صغيرتي أعرف، لا يملكون الحق بضربي على وجهي ولا ظهري ولا بطني، أنا أعرف! ما الذي تريدينه؟

- ألّا يتجرأ أحد أن يضربك، وأرغب.... في الثأر من الكونتيسة.

علا صوت صفير أنفاس تسفيبوبيتش، واغترف من الماء بيديه وغسل وجهه ثم قال:

- هذه حماقة يا إيلغا، هيّا تابعي الشرب، سنذهب إلى آلتينا، كفانا سخافات!

وأخذ تسفيبوبيتش بيد إيلغا واتجها إلى الكنيسة الصغيرة وهو يربت على كرشه:

- هيّا لنلقيَ نظرةً إلى هذه الكنيسة.

لما اقتربا من الكنيسة همّت مجموعةٌ كبيرة من السحليات بالهروب في الحفر وتحت الحشائش، كان باب الكنيسة الصدئ، مغلقاً بإحكامٍ شديدٍ بالألواح الخشبية، وقد كتب على أحدها بحروفٍ لاتينية نحاسية، قرأها تسفيبوبيتش وترجمها لإيلغا: فرانتسيسك غولداغوين - 1806- يا عابر السبيل، ادعُ الله أن يحفظ روحه في الجنة

كان على النوافذ مستعمراتٌ من العناكب وطبقاتٌ من الغبار، وكان زجاج بعض النوافذ مهشّماً، والشمس تعكس نورها على شظايا الزجاج المكسور، وكانت إحدى النوافذ مغطّاةٌ بالأعشاب، هتف تسفيبوبيتش من إحدى النوافذ:

- فرانتسيسك غولداغوين!

فردّ صدى الصوت: غولداغوين!

خاطب تسفيبوبيتش إيلغا:

- هل تعلمين من هو فرانتسيسك غولداغوين؟ إنه شقيق جدّ الكونت الحالي. لقد قُتِل هنا عندما كان راجعاً إلى منزله، فقد أرداه قتيلاً خادمُه العجوز سنةَ 1806 انتقاماً لابنته، ويقول البعض إنه اختلف وابن أخيه على صَبِيّةٍ فقتله، ومهما كان الأمر فقد شُنق الخادم العجوز هنا، إن من وصايا الرّبّ «لا تقتل»، لكن بيت غولداغوين ببساتينه وممتلكاته لا يعرف هذه الوصايا.

- ألقي يا إيلغا نظرةً إلى هذه النافذة، انظري إلى صورة فرانتسيسك! يبدو مخيفاً شاحبَ الوجه، لقد طمس الغبار بعض ملامحها، لكنها كانت واضحة من قبل، هي تخيف النساء والأغبياء، خاصةً حينما يوقدون أمامه السراج الأزرق! أنا أتذكره جيداً فقد كانت القشعريرة تسري في جسدي عندما أنظر إليه. وكما ترين يا عزيزتي، فإن اللوحة غير مكتملة، فالرسام الذي رسم هذه اللوحة فرَّ هارباً لأنه وقع في حبِّ الكونتيسة، لذا فإن عين فرانتسيسك اليمنى مرسومة بإتقان فهي تحدق بنا وتخيفنا، غير أنّ رسم العين اليسرى لم يتمّ، والوجه غير مُكتمل أيضاً.

- يا للفنّان الأحمق! هرب! كان يحسب الكونتيسة محصّنة، ها! لو أنّه أومأ إليها برأسه فقط لارتمت في أحضانه! فالنساء ضعيفات النفوس، ولا يستغنين عن الرجال أبداً، أوه يا إلهي..

التفت تسفيبوبيتش إلى إيلغا، كانت شاردة الذّهن تشيح بنظرها إلى الأرض وتُتَمتِم بكلمات وتطقطق أصابعها. تنهّد تسفيبوبيتش بعمق محدثاً صفيراً ثم قال مقطباً حاجبيه:

- يا لكِ من حمقاء! أنا أكره عبوسكِ هذا، يا إلهي! تعالَيْ لنستريح ونجلس قليلاً هنا.

جلسا على عتبة باب الكنيسة الباخنة، ثم دنا من وجه إيلغا الباهت وقال:

- هل فقدتِ عقلك يا بُنَيَّتي؟ كوني واقعية، فالخشب لا يكونُ فولاذاً! والعينُ لا تعلو على الحاجب! والفأر لا يلد إلاّ فأراً! ماذا تتوقعين من امرأةٍ نشأت وترعرعت على الكبرياء والكِبْر؟ أن تتصرف كالملائكة؟ أسلافها كانوا أوغاداً وذئاباً، فلن تكون هي حَمَلاً وديعاً! بل ستكون لئيمة الطِّباع، وستتصرّف على هذا الأساس، فماذا تريدين؟ ليس من شأننا أن نروّض هذه الذئاب، كوني عاقلة! إنها بارونة من آل غيلينشترال، هل تعلمين آل غيلينشترال؟ هم من آل غولداغوين! فغيلينشترال الأب كان طفلاً غيرَ قانوني لآوتور غولداغوين! نال البارونية بعد الحرب بسبب صلة القرابة بينه وبين غولداغوين. منذ ذلك الحين والعائلتان يتزاوج بعضها من بعض، فهما عائلتان متشابهتان لا تختلفان في شيء! فماذا تتوقعين منهم؟ أن يضربك أحد من آل غيلينشترال ويقبِّلك آخر من آل غولداغوين؟ هذا لن يحدث، فالذئاب معروفةٌ بمخالبها الحادّةِ وبأنيابها القاطعة، فعليك تقبُّلُ ذلك يا حمقاء.

استمرّ تسفيبوبيتش:

-لو أمعنتِ في تاريخ آل غولداغوين لأيقنتِ هذا، فغولداغوين الأب عاش الحملات الصليبية، كان يلقب بالسفاح ذي العينين الذهبيتين، كان شعره ولحيته كسوادِ الليل، وكان أشقر الحاجبين والرموش، لذلك لقبوه بغولداغوين أي العينان الذهبيتان، وذكر في التاريخ أنه على الرّغم من فطنته وذكائه، إلا أنه

كان ماكراً مراوغاً متعطشاً إلى الدماء كالنمر الجائع، كان أسوأ من كلبٍ مسعورٍ، يريق دماء البشر بسهولة إراقة المياه، ويتاجر بالبشر

يحرق قرية كاملة كأنه يحرق سيجاره! يحرقها ثم يدنو بفخر من ألسنة اللهب! ولما دخلت الحملات الصليبية إلى بيت المقدس كان القادةُ يصلُّون عند التابوت أول مرة، أما غولداغوين فقد أعمته رغبته الشديدة في القتل عن الصلاة واتبع التشوه الفظيع في غريزته بسفك الدماء فراح يعدو بفرسه ويجزّ رؤوس المسلمين، ألاحظت هذا التشوّه الفظيع يا بنيتي! قد لا يكون غولداغوين هو المَلوم على هذا التشوه، فالمرءُ لا يصل إلى هذا الانحطاط الأخلاقي بمحض إرادته، ولكن بيئته التي تربى فيها قد تكون هي المذنبة، فقد حولته إلى ذئبٍ مفترس، ثم رُزق غولداغوين بابن يشبه أباه في كل شيء إلا في العينين الذهبيتين.. ورِث عنه قبح الأخلاق. ورُزق أيضاً بحفيد ورث عنه العينين الذهبيتين وقبح الأخلاق. الكونت الحالي لم يرث العينين الذهبيتين، ولكنّ ابنه الذي توفي ورثهما. ويستمرّ هذا الوضع بالتوارث، فتنتقل العيون الذهبية، من الأجداد إلى الأحفاد، أما قبح الأخلاق فيورَّث للجميع. وهكذا يا صغيرتي فإن الصفات الذئبية والقسوة تنتقل بينهم في الجينات، فلا يملكون تغييرها كما لا يملكون تغيير العيون الذهبية، فالكونتيسة الجميلة تصرفت على أساس طبيعتها، فلم تستطع كبح جماح غضبها ولم تستطع التصرفَ بلطفٍ ولباقة!

ضربت إيلغا الأرض وصاحت غاضبة:

- لا تكذب عليّ يا أبي! ألست تكذب؟ أنت تقول هذا حتى لا أشتعل غضباً، لا علاقة لنا بصفاتهم الوراثية وأخلاقهم، هل

اعتقدت أنني سأنسى إساءتها وضربها لك؟ لا لن أغفر لها ضربك بالسوط! سأثأر لك يا أبي، وسأردّ إليها الإهانة.

- أوه عزيزتي.. أنتِ حَمَلٌ وديع، ولا يتحدى الحَمَلُ الذئابَ، هذا كلامٌ سخيفٌ ومخالفٌ للطبيعة..

نصبت إيلغا قامتها وحملت قيثارتها على ظهرها، ورفعت رأسها وحدقت إلى الطريق:

- ألن تأخذي قسطاً من الراحة يا عزيزتي؟

التزمت إيلغا بالصمت، قام تسفيبوبيتش متأبطاً كمانه، مزمجراً وسار باتجاه الطريق، فكان لا يخالفُ إيلغا.

استمرّ تسفيبوبيتش وإيلغا بالسير في طريقٍ مليئة بالغبار ووسط الحرِّ الشديد، يجرّان أقدامهما جرّاً. تظهر في الأفق خلال الحقول الخضراء والبساتين أبنيةُ قريةٍ هنغاريةٍ صغيرةٍ، تلمع أجراس كنائسها تحت أشعة الشمس، وفي الجهة اليسرى تتألق بلدة آل غولداغوين بألوانها الزاهية.

سالت إيلغا مشيرةً إلى البلدة والقرية:

- هل من محكمة في إحداهما؟

- تبحثين عن محكمة؟! أوه... في كلٍّ منهما، ففي محكمةِ القريةِ يحاكم سكانُ القريةِ، أما في محكمة بلدة آل غولداغوين فيحاكم رعايا آل غولداغوين...

استغرقت إيلغا في التفكير قليلاً ثم اتجهت إلى بلدة آل غولداغوين.

- ماذا؟ لِمَ سلكتِ هذه الطريق؟ ما الذي تنوين فعله يا صغيرتي؟ لا تذهبي إلى هؤلاء الفلاحين، حماك الرب منهم يا عزيزتي.

- سأذهب يا أبي إلى المحكمة لأشكو آل غولداغوين.

- ماذا؟ يا إلهي أنت حقاً عنيدةٌ يا صغيرتي! ليس هناك ما نفعله في بلدة آل غولداغوين! لكن يمكننا في القرية تناول الطعام واحتساء مشروب.

- بل في بلدة آل غولداغوين ما نفعله، سأشكو تلك اللئيمة وأقاضيها.

- يا لك من غبية يا صغيرتي! أرجوكِ فكري بعقلانية، لابد أنك تمازحينني يا عصفورتي!

- لا، لا أمازحك، هذا ما علينا فعله حقاً، وإنّي لأعجب منك يا أبي كيف أمكنك أن تقابل تلك الإساءة بهذا البرود الشديد على الرّغم ممّا أعلم من عزّة نفسك! يمكنك الذهاب إلى القرية لو شئتَ، أما أنا فسأتجه إلى المحكمة وأقاضيها حدّق تسفيبوبيتش بإيلغا، ثم سار خلفها وهو يهزّ رأسه ويقلّب كفيه ويتمتم:

- أنت غبية وعنيدة يا إيلغا! هز رأسه، وهما يعبران فوق جسرٍ مبنيٍ فوق نهر، قائلاً: يا لحماقتك! ناديني بالمجنون الأصلع إن خرجتِ من هذه البلدة منتصرة، أقسم يا صغيرتي إنك اليوم في غباء سمك الشبوط!

عَبَرَ تسفيبوبيتش وإيلغا الجسر إلى البلدة، كانت الطرقات فارغة، فقد كان كل من فيها مشغولاً بالزراعة والاهتمام بالبساتين

الخضراء والكروم. تجوّلا بين الطرقات حتى وجدا امرأةً طاعنةً في السنّ بشرتها شاحبةٌ جافةٌ كتينةٍ جافّة! اقتربت منها إيلغا وسألتها:

- هل لي أن أسألك عن مكان إقامة قاضي البلدة؟

- قاضي البلدة؟! كان لدينا يا صغيرتي ثلاثة قضاةٍ، الأول ترك القضاء منذ زمنٍ بعيد، وهو يلزم فراشه بعدَ أن أصيب بجلطة منذ عشر سنواتٍ، أما الثاني فقد تخلى عن القضاء فهو يعيش عيشة الملوك بعد أن تزوج بامرأةٍ ثريةٍ وورث الأطيان والأملاك، كما أنه أصبح عجوزاً فقد تزوج منذ عشر سنين بعد وفاة ابنه البكر -رحمه الله- .

- والثالث يا سيدتي؟ هل تعرفين مكان إقامته؟

- الثالث لا يزال يعمل في القضاء، لكن لا فائدة ترجى منه، فقد أصبح عجوزاً، وآن له أن يستريح في قبره، بدل الفصل في النزاعات، هو يقطن.... في ذلك الركن أخضرِ اللون.. أترينه؟ هناك يقطن القاضي..

- شكراً يا سيدتي.. وانطلق تسفيبويتش وإيلغا إلى منزل القاضي. كان القاضي واقفاً في باحة منزله يهزُّ بعصاه أغصان شجرة توتٍ عريقةٍ، ويلتقط ما يسقط من توت ناضج ليلتهمه بكسل وبطءٍ شديدٍ كثورٍ تَعِبٍ بعد يوم عمل شاقّ، وقد صبغت حبات التوت ذقنه وشفتيه بلونٍ أحمرٍ قانٍ.

رفع تستسفيبويتش قبعته محيّياً القاضي:

- يا سيدي، هل سعادتكم القاضي المحترم؟

نظر القاضي إلى تسفيبوبيتش وإيلغا بتمعّنٍ، وقال:

- نعم إنه أنا، ولكني لا أعمل بعد الغداء.

- وهل تناولت الغداء يا سعادة القاضي؟

- أجل.. اعتدتُ على تناول الغداء في تمام السّاعة الثانية والنصف.. أما في المناسبات والأعياد فأنا أتغدّى في تمام السّاعة الواحدة والنصف.. كان عليكما معرفة هذا!

- هذا صحيح يا سعادة القاضي، لقد أحسنت، فالتخمة تُذْهِبُ الفطنة، ها ها ها، ولكن هل من استثناءات؟

- لا أتعامل بالاستثناءات، فيا صاحبي أنا لا أحكم بين الناس إلاّ بمعدةٍ فارغة، كي لا تُؤثِّر المشاعر والعواطف في أحكامي وقراراتي، حكمت مرةً بعد أن تناولت الغداء منذ عشرِ سنين، هل تعلم ماذا حدث يا صاحبي؟ لقد حكمت على المتهم بعقاب أقلَّ، وهذا غير صائب!... لكنك رجل سمين مثل برميلٍ ضخم! هل أنت كثيرُ الأكل يا سيد؟ ألا يشعرك هذا الوزن الثقيل بالحَرّ؟ ومن هي هذه الفتاة؟

- هي ابنتي يا سعادة القاضي؟ وهي صاحبة الدَّعوى.

- ممم... حسناً إذن، اقتربي يا جميلة.. ما قضيتكِ؟

دنت إيلغا منه وقصّتْ عليه، وصوتها يرتجف، ما حدث في بيت الكونت غولداغوين. أصغى القاضي إلى إيلغا ونظر إلى وجه تسفيبوبيتش المضروب ثم تبسم وقال:

- وما الذي تريدينه الآن أيتها الجميلة؟

- أرغب بشدّةٍ أن تنال الكونتيسة جزاءها على ما فعلته!

- حسناً إذن... هذا من دواعي سروري! سنزجّ بها في السجن.. ثم التفت إلى تسفيبوبيتش سائلاً: أأنجبتَ هذه الحسناء على القمر؟

- على الأرض يا سعادة القاضي، فما من نساء على القمر يا سيدي، وما من خمرٍ للاحتفال بالمولود!

- بما أنك أنجبتها على الأرض يا سيد، فكيف تجهلان أنَّ.... يا لغبائكما، يا أحمقان! أووه... لا أصدق هذا! أنتما غبيّان ومجنونان!

تعجبت إيلغا:

- ولِمَ؟

- لم؟! ربما لأنكما لا تستخدمان عقليكما! هل تعلمان أنني أعمل عند آل غولداغوين؟ كيف لي أن أحاكمهم؟ هئ هئ هئ.. إنهم من النبلاء، وأنت فتاةٌ غجريةٌ، ووالدك يعزف على الكمنجة بشكل سيّئ على الأرجح فهو فاستحق تلك الضربة! أحمقان.. هل أنتما حقاً من كوكب الأرض؟ ثم هل ستقبل الكونتيسة أن تكون خَصْمَكِ؟ لا شك في أنها ستمزق مذكرة الحضور وترميها أرضاً! وهل عندك شهود؟ عمّال آل غولداغوين؟ أنت تحلمين! لن يخسروا أعمالهم كي يشهدوا معك ضدّ آل غولداغوين! هئ هئ هئ.. لقد أحسنت اختيارَ خصمك.. ها ها.. غريبا الأطوار! نعم لقد تعرضتما للإهانة أعرف هذا ولكن الكون يسير هكذا ولا يمكننا تغييره!

- وما الذي يمكنني فعله؟

- ساعدي والدك على تضميد جروحه، حتى لا يتعفن الجرح ويخرج منه الصديد.. اغسليه بماء الرصاص. هذا ما عليك فعله حقاً.. سأقدم لك نصيحة مجانيةً يا مليحة؟ أمسكي بيد أبيك البدين وانصرفا.. لا أحبّ الكلام مع الأغبياء! ولا أطيق رؤيتهم! انصرفا، لقد تخلصتما تواً من قاضٍ ظالم.

طقطقت إيلغا أصابعها وسألت:

- إذن، وما الذي عليَّ فعله إذاً؟

- هناك حلٌ آخر في رأيي يا حسناء، لِمَ لا تصبحين كونتيسة مثلاً؟ عندها يكون لك الحق أن تقاضيها... هئ هئ هئ... من غير ريب لك الحق! إذا أصبحت كونتيسة فحسب! هذه الكلمة تمنحك الحق في مقاضاتها كما يحلو لك.. فلن يستطيع أحد أن يمنعك من ذلك!.... هيّا اذهبا، لا أملك الوقت لهذا الكلام الفارغ.. يحقّ لي أن أطردك بفظاظة إلى أن تصبحي كونتيسة، فأنا أشعر بالتخمة والكسل ويعجز لساني عن الكلام! وداعاً ولا تنسَيْ ماء الرصاص. أدار القاضي وجهه عنهما وعاد يقطف التوت.

غادر تسفيبوبيتش وإيلغا فناء منزل القاضي واتجها إلى الجسر، أراد تسفيبوبيتش أن يستريح قليلاً في البلدة، لكنه لم يرغب في إغضاب إيلغا ومعارضتها.. فاستمرّ بالسير وهو يجرّ جسده السمين خلفه، وقد منعه الجوع الشديد من أن يفكر في أي شيء غير الطعام، فقال متسائلا:

- أنذهب إلى القرية يا عزيزتي؟

لاذت إيلغا بالصمت، حتى ولجا إلى حقول فلّاحي آل غولداغوين. سأل تسفيبوبيتش ابنته:

- أغاضبةٌ أنت يا عزيزتي؟ لماذا لا تحدثينني؟

تمايلت إيلغا وقد فقدت توازنها، أمسك تسفيبوبيتش برأسها وقال:

- هل أنتِ بخير يا صغيرتي؟

استدارت إيلغا نحو والدها وابتسمت ابتسامة صفراء تبدو كتكشيرة تُظهر حقداً وكرهاً، وتشوّه وجهها الجميل.

- ما بالك، أجيبيني بالله عليكِ!

نظرت إيلغا إلى السماء، رافعةً رأسها وصرخت بحرقةٍ من أعماقها وبأعلى صوتها صرخةً مدويةً، ثم أخذت في البكاء وانهمرت دفقات من دموع القهر والاضطهاد على خديها، وكانت تشهق وتنتحب.

- لِمَ كل هذا الغضب يا صغيرتي؟ الأمر لا يستحق، وأخذ تسفيبوبيتش في البكاء وهو يقبل إيلغا:

- تعالَيْ لنجلس هنا يا جميلتي، استريحي بالله عليكِ! هيا! وأمسك كتفي إيلغا بكفيه الضخمتين وأنزلها إلى الأسفَل:

- تعالي لنجلس في ظل هذه الشجرة حتى تهدئي! هيا لنجلس بجانب مجرى الماء هذا، تحت شجرة الصفصاف هذه، فالصفصاف ينمو بجانب جداول المياه دوماً.

حمل تسفيبوبيتش ابنته إلى شجرة الصفصاف، وساعدها على الجلوس تحت ظلها، وكان صوت بكائها يعلو..

- توقفي عن البكاء يا صغيرتي، هيّا! لماذا كل هذا الغضب؟ نعم لقد أهانتني، ولكننا أيضاً تصدرُ منا أحياناً إهانات لبعض الأشخاصِ! لقد أهنْتُ الكثيرين فيما مضى ولم ألقَ جزائي! لكني حتماً نلتُ جزائي اليوم.

سمع تسفيبوبيتش وإيلغا دويَّ رصاصة، ثم ما لبث أن بدأ عصفور بالسقوط والتخبط بين أغصان الصفصافة حتى سقط على ثوب إيلغا. إنها أنثى عُقاب، أصابت رصاصةٌ عينها وأخرى أصابت منقارها.

- أرأيت يا عزيزتي! هذا الطائر قد أُهين إهانة أكبر بكثيرٍ من إهانتنا! لكن هل يُعاقب الفاعل؟ من غير شك، لا..

تحركت الأعشاب، ثم ظهر أمام تسفيبوبيتش رجلٌ وسيم طويل القامةِ عريض المنكبين ممشوق القدِّ أسمر الوجه ذو لحيةٍ كثيفةٍ، وقد أمسك بيده بندقيةً، وأمسك بالأخرى قبعةً من القشّ.

ثبت الشابّ في مكانه حين وجد الطائر مُلقىً على حِجْرِ فتاةٍ حسناء تبكي، فقال تسفيبوبيتش:

- أووه.. ها قد لاقى هذا الشابّ عقابه! ويا له من عقاب! عقاب شديدٌ مقارنةً بما فعله!

- إيلغا يا عزيزتي، أعرّفك بالكونت فونيتش أو البارون زاينيتش، مرحباً بالبارون والكونت! أيهما تفضل أن أناديك بالبارون

أو بالكونت؟ فقوامك المشوق ووسامتك يوحيان باللقبين! ها هي ذا فريستك ملقاة على مئزر ابنتي! فهي تقيم لها جنازة!

الكونت أرتور فون زاينيتش لا يتعدى عمره ثمانية وعشرين عاماً، ويبدو كأنه قد تعدى الثلاثين من عمره. ما زال ينبض بالشباب والحيوية، على الرغم من تلك الخطوط الظاهرة للعيان عند عينيه وزوايا فمه، فهذه الخطوط على وجهه تحكي حياةً فيها شيء من كل شيء، فقد مرَّ بالأفراح والأحزان، بالفشل والنجاح، وببعض المجون.. مخلفةً تلك الخطوط والأخاديد على وجهه الأسمر الوسيم، يظهر الملل على عينيه، واعتادت شفتيه على ابتسامة طائعة ومستهزئة في نفس الوقت. كانِ الكونت أرتور فون زاينيتش يتمتع بشعرٍ مجعدٍ شديد السواد كفتاة تستعد لتضفير شعرها قبل الذهاب إلى المدرسة، وكان لا يستحمُّ كثيراً، فالقذارة تلمع على شعره ورقبته تحت أشعة الشمس. يلبس ملابسَ عاديةً، فبدلته بسيطة قديمةٍ لا تلائم شخصه أبداً ولا تلائم الموضة فقد انتهت موضتها منذ أربع سنوات. تظهر القذارة واضحةً على ياقته، ويرتدي ربطةَ عنقٍ قديمةً مهترئة، مربوطةً بشكلٍ غير متقنٍ تميل إلى الجنب وتكاد عقدتها تُحلُّ. أما قميصه وصَدّارُهُ فيبدوان جديدين فاخرين صنعا من أجود الأقمشة، على الرغم من البقع التي تغطيهما. وهو يرتدي بنطالاً عتيقاً من الحرير يبرز عضلات فخذيه وقوّتهما، وحذاءً عاليا لّماعاً ذاب كعبه حتى المنتصف. كان الكونت أرتور فون زاينيتش يزينُ قميصه الثمين بسلسلةٍ من المعدن وقد علّق فيها ستَّ مداليات ذهبيةٍ ومجسّماً ذهبيّاً لطائرِ اللقلق بعينين من الماس، وبندقيةً مصنوعة بدقة بالغة مسورتها ذهبية وباطنها من البلاتين نقش عليه: جمعية

الصياد الفايستافين والسولنوغورسكين مهداة للكونت أرتور فون زاينيتش

وفي نهاية السلسلةِ علّق الكونت مفتاحاً وصافرةً من القصدير.

لا يمكن للكونت أرتور فون زاينيتش التباهي بعراقة سلالته فهي تمتدّ إلى بداية هذا القرن فحسب، وكان أُرتور يحتفظ بكراسةٍ صغيرةٍ دُوِّن فيها تاريخ البارونات من عائلة فون زاينيتش على يد قِسٍّ سويديّ مُتعلم، بطلبٍ من والده السيد كارل، مقابل مبلغٍ كبيرٍ من المال، ولم يبخل القسّ السويدي بالورق ولا بالحبر، وهو يدوّن أسماء البارونات وتاريخهم، فقد مدّ تاريخ العائلة إلى القرن الحادي عشر وهو ما يخالف الحقيقة. وصدّق العديد من الجهلة الأكاذيب التي دُوِّنت في هذه الكراسة، دون التحقق ممّا كتبه هذا القسّ. لكن استولى على آل زاينيتش شعورٌ بالخجل والإحراج من هذه الكراسة الصغيرة، عندما طلبت إحدى الصحف المحلية أن تنشر شجرة العائلة وشعارها، ولكنها أرادت نشر الحقيقة لا ما كتبه القسُّ المدْفوع له الأجر.

كان البارون الأول زاينيتش نبيلاً ولكن من البسطاء، ارتبط ببنت مصرفيٍّ يهوديٍّ تنصَّر. وكان زاينيتش الأول عديم النّفع، دنيء النفس ذليلاً، يشتكي الجوع دوماً، ويُفضِّل المال على كلِّ شيء. ولولا أن البارون زاينيتش كان محظوظاً لعاش ومات منسياً لا يبالي به أحد من الناس، فقد كان له شقيقان، يدعى الأول يسوعي، تعلم الفيزياء في الجامعة وتفوق فيها وبذل مجهوداً كبيراً ليتمكن من الالتحاق بالكاردينالية. أمّا الآخر فهو شاعرٌ في البلاط الملكي

وقريب الطبيب الملكي. فحصل زاينيتش الأول على البارونية بفضل دعم أخويه وحمايتهما له، وبفضل أموال حميه (والد زوجته) المصرفي ذي العلاقات الواسعة، ولكن لم يكن صعباً حصول فون زانيتش على لقب البارون، كما كان صعباً على زاينيتش الأب الذي ألَّف القسُّ الكاذب سيرته.

أما جدّ أُرتور زاينيتش الثاني فقد كان معلماً في الأكاديمية العسكرية، بعد أن حارب في معركة أوستيرليتس عام 1806م، وكان زاينيتش الثاني يشبه عمه يسوعي الذي التحق بالكاردينالية، وكان أيضاً مثقفاً مملاً كئيباً أكثر من كونه نبيلاً أو عسكرياً، أما ابنه أبو أرتور فقد ورث عن زاينيتش الأب مظهره وصفاته، فقد كان بغيضاً تافهاً ضعيفاً، سيئاً الخلق، ضيق التفكير قليل الثقافة، وبسبب استهتاره وغبائه فقد بدّد ثروة والده وجدّه، ولم يكن ذلك سهلاً فقد كانت أراضي آل زاينيتش وأملاكهم كثيرة، وتتمتع بساتينهم وكرومهم بتربةٍ خصبةٍ غنية، أما مزارع الخيل ومصانع النسيج فقد كانت تدرُّ ربحاً على آل زانتيش يُقدَّر بألفين وخمسمئة فرنك في اليوم الواحد؛ لذا فلم يكن سهلاً تبديد كل هذه الثروة لولا أنه كان عبداً لشهواته يفتقر إلى الحكمة والعقل. ولم يتوقف حتى أيامه الأخيرة عن شغفه وحبه للنساء، فكان يغرم بجنون ويبذل الغالي والنفيس في سبيل هذا الغرام، فكانت النساء هن السبب الرئيسي في إفلاسه؛ فإحدى غرامياته كانت مع فتاةٍ من فينّا، أغرم بها وكان يرتاد القطار السريع مسافراً إليها بصحبة مجموعة كبيرة من المتطفلين يحتسون الشامبانيا، وكان يسافر إليها محملاً بالهدايا النفيسة التي تعبر عن جنونه الشديد: مجوهراتٍ ثمينةٍ كانت قد توارثتها عائلته، ومبالغ

ماليةٍ كبيرةٍ، وخيول أصيلةٍ،... وكان لخادمة فتاته خيول خاصة للطوارئ، وكانت تحصل على ألف فرنك راتباً شهريّاً. وكان يقيم الولائم المترفة عند وصوله وقبل رحيله. كان لكارل فتاة في كلٍ من بودابست وبراغ والعديد من المدن الأخرى.... كانت النساء يعشقن بذخه الشديد وهداياه المترفة، وما زالت إلى الآن تروى القصص والطرائف عن كارل ومغامراته النسائية، منها: أنه أُغرم مرةً بممثلة تخرجت تواً من معهدٍ مسرحيٍ، كانت تقوم بإحدى الأدوار على مسرح ألمانيٍّ عريق (حالياً هي معروفةٌ بتمثيل أدوار الأمهات والدراما والتراجيديا)، لكنها كانت فتاة حسناء وممثلة موهوبة، يعشقها الناس وتهتز المسارح بالتصفيق والتهليل لها. بعد نهاية الفصل الأول من المسرحية قدم لها كارل باقة من الزهور مزينة بقلادة ثمينة لأمه البارونة فون زاينيتش؛ هو أراد التخلص من القلادة فقط لأنها كانت تنخسه بحافتها الحادّة! وبعد انتهاء المسرحية اتجه نفرٌ من رفيعي المستوى إلى كواليس المسرح للتعبير عن إعجابهم بالممثلة الموهوبة كان من بينهم كارل، الذي مشى بثقةٍ وارتياحٍ كأنه في ملكه! فقام بزيارة غرفة الممثل الأول واحتسى الشامبانيا، ثم اتجه لغرفة الممثلة الموهوبة، فوجد الباب مغلقاً فراح يقرعه بقوة، حتى إن بعضاً من الحشد رفيع المستوى قالوا:

- يا لوقاحتك! لقد تماديت يا سيد! أتظن نفسك في السِّيْرك؟ أو في بيتك؟ أنت سيئاً الخلق أيها البارون!

- حقاً؟ أنا فقط لا أحب الانتظار.

- لقد آن لها أن تخرج،! ما عليك سوى الانتظار دقائق قليلة!

- لا، لا أريد الانتظار!

- لكنّ هذا تصرفٌ وقح! لربما كانت تبدل ثيابها.

- نعم، ولكني قليل الصبر. وعاود كارل قرع على الباب مرةً أخرى.

تساءلت الممثلة الحسناء بصوتها الأنثوي:

- مَن بالباب؟!

- إنه أنا..

- ومن تكون؟

- أحد المعجبين بك، أنا بصراحة لا أفقه أيَّ شيءٍ في التمثيل، ولكني أصدّق حقاً ما يقال، إنك أنتِ موهوبة بالتمثيل، هيا افتحي هذا الباب!

تتصرف بغرابة.. هذه غرفة ملابسي! والدخول إليها غير مسموح، مَن حضرتك؟

- الكونت فون زانيتش وأريد التحدث إليك بموضوع.

ردّت بصوتٍ منخفض:

- يسعدني مساعدتك أيها الكونت، لكن أمهلني بضع دقائق لأرتدي ملابسي.

- ليس لديّ الوقت الكافي يا سيدتي، فإما الآن وإمّا أنْ أرحل.

- لا يُسمح بالدخول هنا!

- حسناً إذن أنا سأذهب، يا إلهي من ذا الذي يشدني؟

التفّت الجماهير المعجَبة بالممثلة حول الكونت يملؤها مشاعرُ ساخطةٌ عليه بسبب سوء تصرفه ووقاحته، وكان بين الجماهير خطيب الممثلة، فشدّ الكونت من ملابسه ليبعده عن الباب، ثم صاحت الجماهير به:

- ابتعد عن الباب يا سيد؟

- ولو إذا لم أبتعد عن الباب فما الذي سيحدث؟ ثم اقترب من الباب وخبطه بقوة مستخدماً قبضته وقال:

- أنت يا آنسة تحاولين إثارة هذا الجمع ضدي! هيا افتحي الباب، لن أنتظر أكثر من دقيقةٍ ونصف، ألا تريدين التحدث مع الكونت زانيتش؟

سألت الممثلة بارتباك:

- وماذا تريد أيها الكونت؟

- أوه يا إلهي! ماذا أريد؟ ليس عندي وقتٌ للحديث! أنا سأعدّ إلى الثلاثة فإن لم يُفتح الباب عند ثلاثة فسأغادر، ولن تقابليني أبداً، سأبدأ الآن: واااحد، اثناان.... هه هه..

سُمعت خطوات تقترب من باب الغرفة، فقال الكونت:

- ثلااثة.

فتحت الخادمة باب الغرفة تبتسم بلطف للكونت، وأفسحت له المجال لدخول الغرفة. تقدَّم الكونت، وما أن دخل إلى الغرفة

حتى غمرته الروائح الزكية، كانت الممثلة تلتفّ بشالٍ وتقف بجانب نافذةٍ مظلمةٍ، والفستان معلقٌ بقربها، كان وجهها يحمرُّ خجلاً،

- يا الله كم هي بريئة! قال البارون في نفسه...

- معذرةً يا سيدتي! عليَّ المغادرة خلال دقيقة لذا..

حدّقت به بفضول ظاهرٍ على عينيها. كانت المرة الأولى التي تقابله فيها، فقد كانت تتوق إلى لقائه منذ أن سمعت به في المعهد منذ زمنٍ بعيد، سألت بعد صمتٍ دام برهة:

- ماذا تريد يا كونت؟

- أرجو المعذرة يا آنستي على إلحاحي الشديد لمقابلتك، حقاً أنا معجبٌ بك!

ازداد وجهها احمراراً من الخجل:

- أنا لا أحبّ المجاملات.

قال البارون محدّثاً نفسه: يا إلهي كم هي بريئة ثم سأل:

- ما أجرك الذي تتقاضينه؟

- لا أعلم بعد، لكنهم سيخبرونني قريباً، ليس لديّ فكرة بعد، ولكني أظن أنه لن يزيد مبدئياً عن ألفين..

- ممم.. مبدئياً هذا أجرٌ ممتاز...

نظر البارون إليها فاحمرّ وجهها خجلاً، ثم قال:

- سأدفع لك أضعاف هذا المبلغ مئةً وخمسين مرة..

أصبح وجه الممثلة المبتدئة شاحباً كالموتى، كادت تسقط أرضاً من هول المفاجأة، فألقت جسدها على الكنبة، وراحت تشهق وتضرب كفاً بكف تضحك مرة وتبكي مرة، انحنى الكونت، ثم غادر الغرفة،

أسرعت الخادمة داخلة إلى الغرفة، فوجدت الممثلة في حالة من الهستيريا، تختلط ضحكاتها بالدموع، أصيبت الخادمة بالذعر وخرجت تركض، بعدئذ تجمع الممثلون عند باب الغرفة يتهامسون ويرمقونها بنظراتهم، ولا يدرون ما العمل أيُبْدون سخطهم على تصرفات الكونت الوقحة؟ أو يحسدونها على العرض الذي قدمه إليها؟ اندفع خطيب الممثلة إلى غرفتها مسرعاً وانحنى عند قدميها قائلا:

- لا عليك يا عزيزتي! أعدك أنه سيدفع الثمن جرَّاء تصرفه هذا، لكن لِمَ فتحت له الباب إنه شيطان!

- أووه! لو تعلم يا جورج مدى سعادتي! هذا يوم سَعْدناّ! وعد الكونت بأن يدفع لي مئة وخمسين ضعفاً، ولقد تعلمت في معهد التمثيل أن الكونت زانيتش لا يخلف وعده أبداًا! ليته كان وسيماً! لكن هذا المبلغ يستحق بالفعل...

- اخْرُج إليهم يا عزيزي وأخبرهم بأن يعلنوا لجمهوري أني لن أستطيع متابعة المسرحية لأني مريضة.

بعث الكونت زانيتش في اليوم التالي إلى الممثلة الموهوبة بمبلغ ضخمٍ يعادل أجر ثلاثة شهور..

هذه إحدى نوادره مع النساء، لكن لا أحد يعلم ما مدى صحتها!

فصل النفقات التالي الذي ساعد الكونت على تبديد ثروته هو لعب الورق أو القمار، لقد كان البارون زانيتش لا يحب لعب الورق فهو مضجرٌ بالنسبة إليه، لكنه حين يبدأ باللعب والخسارة فإنه يضيِّع مبالغ مالية هائلة، وفي مرة من كثرة ضجر الكونت فإنه قام باختراع لعبته الخاصة، وهي لعبة بسيطة سمّاها الأسود والأحمر، فكان يمسك بورقة اللعب ويسأل من يلعبُ معه - وهو يريه ظهرها: أحمر أو أسود؟ فإن حزر اللاعب ربح، وإن لم يحزر ربح البارون.

لقد كان البارون قليل الذكاء حقاً، فكان من غير المحتمل أن يخترع لعبة أكثر ذكاء من لعبة الأسود والأحمر، بيد أنه يقيناً كان قادراً على الخسارة فقد خسر في ليلتين اثنتين ضيعتَه: «كونتية فونيتش» التي كان قد اشتراها والده في غاليسيا فكانت هذه أول خسارة مادية له.

أما الخسارة الثانية فكانت قتله لزوجته البارونة فون زانيتش بسبب سلوكه وتصرفاته، أما الخسارة الثالثة فهي خسارة ابنته الخرقاء المنافقة التي زوّجها بعاملٍ مصرفيّ يهودي يحاول التطفل إلى طبقة النبلاء.

أما لقب البارون فقد انتهى إلى أسوأ مصير، حين رهنه مقابل مبلغ سخيف من المال عند صهره المصرفيّ، فاستبقى اليهودي لقب البارون لنفسه حين طرحه في مزاد، وكانت نهاية البارون مأساوية حيث أطلق رصاصة على نفسه في محاولة فاشلة للانتحار فاستقرت

على كتفه، توفي بعد ذلك على مرأى من بنته وبعضٍ من القساوسة، تاركاً عند صهره اليهودي كوسيلة ابتزاز بعضاً من السندات والديون بمبلغ مالي كبير.

أما البارون أرتور الابن الوحيد له، فقد أرسله بعدما توفيت أمه في سن الثانية عشرة إلى فينّا وألحقه بالمدرسة الداخلية. تخرج أرتور من مدرسته الداخلية وهو يتحدث ثلاث لغات ثم التحق بالجامعة ليدرس العلوم اللغوية، لكنه ما لبث أن تحول إلى دراسة الرّياضيات، وقد تفوق في كلية الرّياضيات وفاز بجائزة المؤلف الطلابي الأفضل لموضوعٍ كتبه عن الرياضيات التفاضلية. وحين انتهى من دراسته عاد والتحق بكلية اللغات مجدداً. كان بإمكان أرتور بعد تنقله بين الكليات أن يكون له شأنٌ حسن، لولا المبالغ المالية الكبيرة التي كان يرسلها له والده كل شهر، فقد أفسدت الأموال تفكيره، فبعد أن فشل مشروعه في تأسيس مكتبته الخاصة ألتي صرف عليها أموالاً كثيرة منذ التحاقه بالجامعة، فقد تملكه اليأس وسار على خُطا والده، فانتقل إلى باريس واستمر بإرسال الرسائل لوالده البارون طلباً للأموال. وبسبب طيبة قلب البارون كارل فكان دائما يرسل له شيكاتٍ بمبالغ مالية كبيرةٍ لكن هذه المبالغ كانت تقل شيئاً فشيئاً وتصبح على فتراتٍ زمنيةٍ أطول، فقد كانت تصله الآلاف من الفرنكات ثم أصبح المبلغ يقل تدريجياً إلى مئات الفرنكات حتى تسلم أرتور فون زانيتش نعي والده في رسالةٍ من صهره اليهوديّ المصرفي مع شيكٍ بألف فرنك وورقة كتب فيها أن هذا المبلغ هو كل ما يملكه والده البارون كارل، وأن البارون أرتور ليس له أي مبالغ أخرى أو أملاك يرثها عن والده المتوفّى. بعد

أن انتهى أرتور من قراءة الرسالة احمرّ وجهه من شدة الغضب والقلق.. غمره شعورٌ بالخجل الشديد من تصرفاته وتصرفات والده المستهترة، وأخذ يفكر بجدية في مستقبله وكيف أنه أفسده، فقد كانت لديه الفرصة في أن يكون له شأنٌ كبيرٌ حين تخرج من الجامعة، لكنه أفسد هذه الفرصة بتصرفاته. قطع أرتور الورقة ومزقها بغضبٍ وسخط وألقاها أرضاً ثم لكم نفسه بكل قوة، وتمنى لو يمزق الألف فرنك، لكنه لم يستطع فعل ذلك فقد كان في أشدّ الحاجة إليها، حيث استطاع بفضلها تسديد نفقات سفره من باريس هارباً من ديونه المتراكمة، كان يدين للعديد من الفنادق وصالات القمار.. ويا للخجل الشديد، من الغانيات.. فقد كان وضعه المالي في الفترة الأخيرة سيئاً إلى درجةٍ أجبرته على الاقتراض والعيش على حساب الغانيات، ففرَّ إلى موطنه محطماً، ضالاً، يائساً.. لكنه فكّر: هناك أمل، فهو ما زال يتمتع بصحته وشبابه، وهو لم يكن قطُّ وغداً عن قصد، ولحسن حظه فهو شخصٌ مرن الطباع، يقبل التغيير.

عاد أُرتور إلى فينّا وأقبل على الدراسة بنهمٍ كبير، ولأنه أراد الاعتماد على نفسه وعدم التطفل على أحد، فقرر العمل معلماً للحساب في الكلية العسكرية، وعمل أيضاً «صحفيّاً» في صحيفتين فرنسيّتين معروفتين. كما أنه نشر بعضاً من أشعاره في إحدى مجلات فرنسا المعروفة (فلم يكتب أبداً بالألمانية فقد كان كارهاً لها مثل فريدريك الكبير). واستمرَّ على هذه الوتيرة يعيش بتواضعٍ وهدوء معتمداً على نفسه فترةً من الزمن (خلافاً لحياته في باريس)، لكن أُرتور لم يدم على هذا الحال طويلاً، فبعد أن وصل إلى مرتبة الدكتوراه في الفلسفة ومرتبة الماجستير في الحساب، تسلل الفساد إلى

حياته وهو في قمة النجاح. وتعثر حال أرتور، فلم يولِ انتباهاً لإسرافه حتى انغمس في الدَّيْن، فقد أراد أن يعوض الحرمان والفقر الذي عانى منه، ولقد جعل زواجُه من حسناء فقيرة من النبلاء الوضعَ أكثر سوءاً، فقد تزوج بها بعد أن تحابّا، وأيضاً شفقةً عليها، وازدادت النفقات بعد زواجه، ووجد نفسه مجبراً على أن يرسل الرسائل إلى أخته يسألها عن ضيعة أمه، هل تم بيعها لسداد ديون أبيه؟ وأن ترسل له بعضاً من العائدات إن لم يتم بيعها، كما أنه ذكّرها بالمكتبة التي تركها عندها لتقوم بحفظها له وطلب منها إرسالها إلى فينّا.

تلقى أرتور برقيةً من زوج أخته اليهودي:

- احضر إلى زانيتش خالاً. سافر أرتور إلى زانيتش، وعند وصوله هناك طُلب منه أن يتفضَّل ويُكمل طريقه ماشياً إلى المنزل، فالسيدة بيلتيزير لا تطيق أصوات العربات!

دخل إلى صالة المنزل فوجد أخته جالسة وقد اغرورقت عيناها بالدموع، وزوجها يقرأ في صحيفة متجاهلاً دخوله، فهتف:

- مرحباً، هذا أنا أرتور!

فأجاب صهره:

-نعرف، أحسنت صنعاً بحضورك، يسعدنا حقاً أنّك أطعتنا، ما زلتَ تتمتع بقدرتك على الخضوع للأوامر يا بارون.. فالخضوع والطاعة فيهما شيء من العبودية... وهي واجبة على من هم مثلك..

قال أرتور وقد أصابته الدهشة:

- لا أفهم ما ترمي إليه! ما الذي يبكيكِ يا أختي؟ لقد وصل أرتور شقيقك العزيز! هيا توقفي عن البكاء وتحدثي إليّ!

قال الصهر:

- إنها تبكي منذ أن أخبرناها بحضورك.. تفضّل بالجلوس.. فإن أختك لم تفقد حنانها بعد.. والفضل يعود إليك وإلى والدك فلم تُبدِّدا كل شيء.. وأختك هذه تذرف الدموع لأنها لا تزال تحبك..

مسح أرتور على رأسه، وحملق إلى صهره تائهاً، فلم يفهم ما يقوله صهره.. تابع الصهر دون أن يلتفت إلى أرتور:

- أجل أيها البارون المحترم، فأختك لم تستطع أن تتغلب على عاطفة الأخوة التي تجمعها بك، لكن هذه القرابة انتهت، فهي ليست أختك بعد اليوم، وأنت لم تعد أخاها، فهي أرقى منك بكثير، أما أنت فقد وصلت إلى درجةٍ من الدنوّ والانحطاط، فلا تصلح أن تكون أخاً لها بعد اليوم.. أيها البارون المحترم! عليك أن تشكرها، لأنها سمحت لك بالدخول إلى هذا المنزل المحترم!

ردّ البارون ساخطاً:

- أرجوكِ يا سيلفيا.. وضحي لي ما الذي حدث! فأنا لم أفهم أيَّ شيء مما قاله هذا الرجل! لا شيء.. لم تبكين؟

وقفت سيلفيا بيلتيزير بعد أن كفكفت دموعها وراحت تجوب الغرفة ذهاباً وإياباً تجرُّ ثوبها الثمين خلفها، والدموع تتساقط بغزارةٍ من عينيها..ثم قالت باكيةً:

- ألم تعقل بعد؟ أنت تدمّرنا بتصرفاتك المهينة! مجونك يغضبنا! أنا أشعر بالغضب والسخط تجاهك، فتصرفاتك لا ترضيني بصفتي أختك ولا بوصفي مسيحية متدينة.

قال أرتور:

- اشرحي لي يا سيلفيا مازلت أجهل ما الذي تتكلمين به؟

- اخرس! لا تتكلم أبداً! مَن هذه الفتاة الحقيرة التي ارتبطت بها؟

- حقاً يا أرتور! تزوجت من هذه الفتاة الحقيرة ودنّست اسم عائلة فون زانيتش كلها، واسم جميع أقاربنا وألحقت بنا العار!

اشتدّ غضب البارون واحمرّ وجهه ثم نظر إلى أخته:

- لم أعترض قطُّ على زواجك بهذا الحقير، احترمتُ قراركِ هذا، ثم ها أنتِ تصدرين الأحكام على اختياراتي وتوجهين لي الإساءات، بتشجيعٍ من بيلتيزير! أرجوكِ توقفي!

صاح بيلتيزير:

- أتدعوني بالحقير؟ لكنني أسامحك بهذه الإهانة! سأغفرها لك!

ضربت سيلفيا الأرض بقدميها ومشت نحوَ أرتور وهي تزفر قائلةً:

- أنا على علمٍ بكل أخبارك! كلها! لم تكتفِ بزواجك من هذه الدونية الحقيرة الصعلوكة، بل أنت فوق ذلك غير مؤمن، لا

تزور الكنيسة أبداً! نسيت دينك، ألم يخطر ببالك أنك قد تموت في أيِّ لحظة! يقيناً ستذهب روحك إلى الجحيم!

هتف بيلتيزير:

- أتمنى لو كان جميع مَنْ في الأرض حقيرين مثلي! يا إلهي! لَتَبدَّل الحال إلى الأفضل، ولَمَا وجد أناس لا يولون اهتماماً ولا احتراماً لا لعائلةٍ ولا لشرفٍ، ولما برز نساء ساقطات...

ثم صمت برهة بعد أن ارتعب من وجه أرتور الذي كاد ينفجر غضباً، ثم صاحت سيلفيا:

- هذه تصرفات لوثرية، بل هي أسوأ من تصرفاتهم! طلبت منك الحضور إلى هنا لأخبرك أنك شخصٌ دفيء، وجبت عليك التوبة! طلِّقْ تلك الفتاة حالاً، وتخلَّ عن حياتك القديمة، هل تسمعني! هل تفهم ما أقول؟

ردّ أرتور بصوت مخنوق:

- حسناً إذن، مادامت الفئات الطبقية تهمكم كثيراً، فاعلموا أني أنا البارون أرتور فون زانيتش ليس من مستواي أن أدخل في حوارٍ مع هذا اليهودي الذي قدم من بولندا! لكني سأتنازل قليلاً وأسألكما: ماذا حلَّ بالضيعة التي تركتها أمي؟

أجاب بيلتيزير فوراً:

- إنها لسيلفيا وحدها من غير ريب.

- لا، ليست ملكها وحدها!

- لقد ذُكر هذا في الوصية التي تركتها أمك.

- إياك أن تكذب! لم تترك أمي أيّ وصية! أنا متيقّن من هذا.

- بل الوصيّة عندنا.

- إذن فهي حقاً مزورة! أين المكتبة التي تركتُها عندكم؟

- بعتها وأرسلت إليك ثمنها مع نعي أبيك.

- هل بعتِها بألف فرنك فحسب؟! إنها تساوي مئة ألف.

قال بيلتيزير باستهزاء:

- وددت حقاً لو استطعت أن أبيعها بمبلغٍ أكبر!

- لمن بعتها؟

- لي، بيلتيزير.

اختنقت الكلمات في حلق أرتور، مسح وجهه بيده ثم غادر الغرفة مسرعاً، فصرخت سيلفيا:

- ارجع يا أرتور، ارجع.

أراد أرتور العودة إلى أخته التي يحبها كثيراً، لكن لم يكن بوسعه التحمل أكثر، فتابعت أخته تقول:

(عليك أن تتوب يا أخي! لا يزال هناك وقتٌ للتوبة!.)

فانطلق البارون خارجاً من منزل أخته متوجهاً ألى محطة القطارات وهو يكاد ينفجر من شدة الغيظ. دخل أرتور إلى قمرته، وانكبّ على وجهه متمدداً على كنبة المقصورة، ولم يحرك ساكناً إلى أن

وصل القطار إلى فينّا، وهناك أصيب بصدمة كبيرة حين دخل إلى منزله ووجد رسالة كتبتها له زوجته التي كان يذوب في حبها، تخبره فيها أنها قد هربت مع حبيب لها وتطلب منه السماح، كان وَقْعُ خبر خيانة زوجته عليه كالصاعقة.

وبعد الحادثة بأسبوع فوجئ بزوجته الخائنة ملقاةً أمام باب بيته، لقد عادت -بعد أن طردها حبيبها- لتقتل نفسها بالسم أمام بابه.. رجع أرتور من المدافن ليجد الخادم في انتظاره حاملاً إليه رسالةً من شقيقته تخبره فيها:

(عزيزي أرتور! لقد وصلتنا أخبارك.. الجريمة التي قمت بها لتُمْحُوَ الخزي الذي لحق باسم عائلتنا هي من غير شك خطيئة تغضب الإله..لقد طلبنا منك أن تتوب وتطلق زوجتك، فما كان ينبغي لك أن تقتلها! لم يكن موتها ضرورياً، ولكن لا تفقد الأمل يا أخي ما زال هناك متسع من الوقت للتوبة، أنا أُكْثِر من الدّعاء لك في صلاتي! وتأكد أن هذا الدعاء لن يذهب هباء، أرجو أن تدعو وتبتهل أنت أيضاً.

شقيقتك سيلفيا)

قطّع أرتور رسالة أخته ومزقها إلى قطعٍ صغيرة ثم ألقى بها أرضاً، وداس عليها بقدمه فهذه اليد التي كتبت اسم الإله نجسة.. ثم أجهش بالبكاء حتى وقع مغشياً عليه..

منذ ذلك الحين وأرتور يعيش حياةً غريبة، فقد رمى وراء ظهره تعليمَه الجامعي والحساب والفلسفة حتى الشِّعر الفرنسي،

صار يعبّ الخمر حتى يثمل، ولازم بندقيته، وصار يجوب زاينيتش وغولداغوين وقرى مجاورة، يشرب الخمور بجنون، ويطارد الفرائس، حتى لقب بزاينيتش الوحش، لم يكن الوحش يُرى إلا في البارات المزخرفة على مفترق الطرقات. حتى غدا معروفاً لدى أصحاب الأراضي الحِراجيّة والرعاة.

لم يكن لديه مأوى أو مكان يبيت فيه، ولم يكن يملك قوت يومه، ولولا ذكاؤه الذي يظهر للناس في أثناء حديثه معهم وفطنته الظاهرة لظنه الناس مخبولاً. كان الجميع حائراً في أمره يلقبونه مرةً بزانيتش الوحش ومرةً بالعابد المتجول أو أرتور التعيس. واتخذت منه الصحافة الهابطة مادة دسمةً، وقد تحدثت مؤخراً عن رغبة البارون أرتور في رفع دعوى قضائيةٍ ضد عائلة بيلتيزير، وكتبت أيضاً عن أخته التي استولت على حق أخيها الشرعي، وأخذت بعضُ الصحف التافهة تنشر الطرائف والقصص عن أرتور فون زاينيتش ووالده البارون كارل، وأبدى بعضهم أسفه على انقطاع نسل عائلة زاينيتش.

كان البارون زاينيتش يفضل التجوال في البساتين والسهول وقرب الجداول، بحثاً عن الفرائس التي كانت تكثر في مثل هذه الأماكن، ولم يمانع مُلّاك هذه الغياض والبساتين تجوال البارون فيها، فالجميع كان يكره اليهودي بيلتيزير وزوجته ويرون البارون عدوه اللدود. حتى إن زيارة أرتور للبساتين والغياض كانت تَسُرّ النساء المالكات لها، وكن يعجبن بشبابه ويَقُلن عنه: يجب ألّا يلقب بملك الغاب، فهو أصغر وأشبُّ من ذلك.. بل الأفضل أن يلقب بوليّ عهد الغاب!

كان من عادات أرتور أن ينحني احتراماً عند مقابلة أحد، لكنه عندما قابل تسفيبوبيتش وإيلغا ثَبَتَ في مكانه مذهولاً من المشهد الفني، فكونه فناناً انبهر من المشهد المؤلف من تسفيبوبيتش وإيلغا والكمنجة والقيثارة وطائر العنقاء، لكنه شعر بسخطٍ شديد حين سماعه بكاء إيلغا وقال:

- ما الذي يبكيك يا آنسة؟

ابتسم تسفيبوبيتش وقال ساخراً:

- أعتقد أنها تبكي لأنها امرأة، فالرجال لا يبكون!

- هل أنتَ سبَّبْت لها البكاء؟

- نعم أيها البارون، أعترف أني أنا السبب...

رمق البارون وجه تسفيبوبيتش البدين بنظرة سخط، وضم قبضتيه.

- وبم ضايقتها أيها الحيوان السمين؟

- أغضبتُها يا حضرة البارون، لأن وجهي البدين قد ضُرب وجُلد بالسوط ولم يَلْقَ المعتدي جزاءه.. لكن يا سيدي هذه بُنيّتي والرجل المهذب لا يشتم أباً في حضرة ابنته!

- بأيّ سبب أحزنتها أيها اللئيم؟ لا تحزني يا آنسة! سيلقى هذا الوغد جزاءه الآن! أَقُمْتَ بضربها؟ أجب!

- لقد حصل ضربٌ فعلاً أيها البارون.. لكن أنا من ضُرب وليست هي! تعاطفك مع ابنتي قد أثّر فيّ فعلاً يا سيدي! أنا أشكرك حقاً عليه..

- يا لك من مهرّج!

قال الكونت ما قال، وقد ضمّ قبضته اليمنى غضباً ثمّ تقدم إلى إيلغا متسائلاً:

- ما بالك يا فتاة؟ لماذا تبكين؟ من ضايقك؟ قولي لي من الذي أغضبك وأعدك أنني سأضربه بشدة!

مسح الكونت بيده الضخمة -التي قد لفحتها أشعت الشمس- على شعر إيلغا، وتلألأ الخير في عينيه:

- إنه لمن واجب أي رجلٍ أنْ يذود ويدافع عن النساء، فعلى القوي أن يدافع عن الضعيف. أخبريني ما الذي يبكيك؟ ثم انحنى الكونت أرتور وجلس بجانب إيلغا وهو يتأملها وقد غطت وجهها بيديها الصغيرتين المبتلّتين، وشعرها ينسدل على كتفيها، وصار يتحدث بنبرة حنون لم يتحدث بها منذ وقتٍ طويل، وسمعت إيلغا هذا الصوت الحنون وأحست أنه صادق ويمكنها أن تثق به:

- ما الذي يبكيك؟ أخبريني بمن سبَّب هذا الحزن! يمكنك أن تثقي بي، فأنا لست مهرّجاً عجوزاً أو أحمق، بل أنا رجل فتيٌّ يمكنك الاعتماد على قوّتي.. أستطيع أن أفعل أي شيء، لماذا تبكين؟ هاه؟

حينما تسأل طفلاً لماذا يبكي فإنه في الحال ينفجر ببكاءٍ شديد، وهذا أيضاً يحدث مع النساء، فلقد انفجرت إيلغا بالبكاء الشديد وعلا صوت نحيبها..

-مِن هذا البكاء الشديد أستطيع أن أخمِّن أنَّ المصيبة كبيرة جداًا! هل ستخبرينني يا عزيزتي؟ باستطاعتك أن تثقي بي، كوني

صادقة معي.. فلست أسألك فضولاً، بل أرغب حقاً في الحصول على شرف مساعدتك يا آنسة!

ثم انحنى الكونت وطبع قبلة على رأسها:

- أعدكِ أنَّكِ لن تحزني؟ هيا آنستي! احكي لي لتخففي عن نفسك، أخبريني بكل ما حدث معك...

ردّ تسفيبوبيتش:

- لا أعتقد أنها ستتوقف عن البكاء في الوقت القريب، فهي سريعة الانفعال وأعصابها متهالكة كأنسجة ثوبٍ قديم، فلنتركها لتهدأ وتفرغ ما لديها من دموع! لكنكِ ستشعرين بالعطش سريعاً يا صغيرتي!

- أووه، أجل! الماء علينا أن نسقيها بعض الماء! إنه قريبٌ من هنا..

- وقف البارون ومشى حتى توارى خلف الأعشاب والأشجار الكثيفة، وراح صوت تكسر الأغصان يُسْمَعُ في أثناء مروره بينها بسبب ثقل جسده وقوّته.

دارى تسفيبوبيتش ضحكته وقال:

- يا له من كونت حقاً! مرهف المشاعر، مهذب، ومؤدب! هئ هئ هئ! يمكنكِ التصديق أنه بهذه الطيبة! لكن لا تصدقيه كثيراً، يا له من شخصٌ شهم، لكنك إذا وضعتِ إصبعك في فمه فسيقضم يدك كلّها حتى مرفقك! لا تخبريه يا عزيزتي بِمَ حدث عند آل غولداغوين، فجميعهم أقرباء إنهم قساة القلوب، وأؤكد لك إنه سيعتبرك حمقاء وسيضحك منك كثيراً، هيّا، كفاك بكاء!

طقطقت الفروع ورجع البارون من بين الشجيرات يحمل في يده كأساً من الفضة ملأى بالمياه.

- هيا ارتوي من هذا الماء البارد يا.. ما كان اسمك؟ إيلغا!

جثا الكونت على ركبتيه وقرّب كأسه من شفتيها، تناولت إيلغا نصف الكأس بعد أن رفعت يديها عن وجهها، ثم قالت:

- آه يا لتعاستي! يا لتعاستي!

- أنا حقاً أصدقك! قال وهو يمسح جبينها بالماء:

- فلو أنك قلت يا لسعادتي، لما صدقتك يا عزيزتي! هيا اشربي!

تمتمت إيلغا:

- أرجوك يا سيدي، أنا أرجوك ألّا تشتم أبي! فهو أيضا شديد التعاسة مثلي!

- أنا أعدك، فلن أسيء له مجدداً.. لقد كنت غاضباً حينذاك، فقد كنت أظن أنه هو السبب في بكائك، إنني أقدم أسفي واعتذاري من سوء تصرفي، لكنه حقاً بدا شديد البرود وأنت تبكين، وليس هذا ما يفعله الأب المحترم!

ردّ تسفيبوبيتش مبتسماً:

- عليك الآن أن تمسح على جبهتي بالماء البارد أيضاً! فقد تركتُ البكاء منذ أن كان والدي يضربني بالعِصِيّ، لكنك تبدو رقيق المشاعر اليوم أيها الكونت! إنني لا أزال أذكر ذلك اليوم منذ ستّ سنين، اليوم الذي كسر فيه الكونت أرتور فون زاينيتش أسنان

النادل في مطعم الحصان الأسود للبلياردو في براغ، أتتذكر أيها البارون؟ كسرت إحدى أسنانه بالعصا وكسرتَ الأخرى بقبضتك...

أجاب البارون:

- لقد حدثت الكثير من الأمور منذ ستّ سنوات! الكثير حقاً! لقد حصلت أمورٌ كثيرة ليس من المناسب ذكرها الآن، هيا يا عزيزتي! قصّي عليَّ ما حدث! فقد هدأتِ قليلاً، احكي لي ما حدث لك حتى تخففي من مصابك.. هيا؟ مَن المسؤول عن حزنك وبكائك؟

- لقد أساؤوا لأبي ولم يسيئوا لي!

- حسناً إذن لقد كنت تبكين لأجل أبيك؟

- لقد تمّت إهانته بقسوة شديدة! لو رأيتَ كيف ضربوه بالسوط، لفزعت!

- هممم، هذا ما يبكيك إذن! أنت فتاةٌ طيبة القلب حقاً! لقد رزقكَ الله بفتاة طيبة يا سيد! لا مثيل لها! احكي لي ما حدث.. فأنا لن أتوانى في الدفاع عنه، كما كنت سأدافع عنك.

أسرع تسفيبوبيتش إلى الرد:

- لا يا سيدي لا تدافع عني!

- ولم؟

- لأنه من المستحيل أيها البارون.. لقد تشرفتُ بنيل ضربة من سوط شخصٍ نبيل، شخصٍ مهمٍّ جداً، لا يمكن لأحدٍ أن يسيء

إليه،! فلا داعي لدفاعك عني، إن ابنتي هذه مزاجية وسريعة الغضب.

- ما هذه السخافة! لا أهتمّ حقاً بعلوّ شأن مَن أهانك أياً كان! سيصله عقابي إن استحقّ.. قصّي عليّ ما حدث يا إيلغا.. سأتعهد بمساعدتك.

وبعد إلحاح شديدٍ من البارون أرتور فون زاينيتش حكت إيلغا له سبب حزنها. وحين أخبرته بأن الكونتيسة غولداغوين هي مَن ضربت والدها بالسوط، رفع الكونت حاجبَيه:

- إذن هي امرأة؟

- أجل، الكونتيسة غولداغوين..

- أكملي يا عزيزتي..

ظهر الغضب على وجه البارون وأخذ يمسح جبْينه:

- أكملي حديثك... أكملي.. أنني أنصتُ إليك.. إذن الكونيسة مَنْ ضربه! لم يكن رجلاً؟

- نعم أيها الكونت!

- هيا أكملي القصة...

عندئذ قصّت علي كيف سقط والدها تحت أقدام الخيل متضرجاً بدمائه، فنظر الكونت إلى تسفيبوبيتش وقال:

- إذن هي السبب في جرح شفتيك؟

- نعم! إنه جرحٌ بسيطٌ لا يستحق كل هذا الاهتمام! لمِ لا نتحدث بأمر آخر كالسياسة مثلاً؟

ضرب الكونت قبضته على الأرض، وصاح:

- لقد سألتك أيها العجوز السمين، هل هي مَن فعل هذا بشفتيك أو لا؟ إنّ ابنتك تحاول أن تأخذ حقك وأنت تمزح! يا لك من مهرّج!

ردت إيلغا فوراً:

- نعم، هي مَنْ فعلت هذا.

فقال تسفيبوبيتش:

- لقد تخلّى العجوز السمين عن حقه هذا! أتكلم جدياً أيها البارون! أفضِّل الحديث بالسياسة من الحديث بأمورٍ لا جدوى منها.

تابعت إيلغا الحديث وأشارت بيديها لتبيّن كمية الدماء التي فقدها أبوها، وكيف أنه لم يكن يقوى على السير فقد كان يسير عارجاً نحو الكنيسة، وأخبرته أيضاً بقاضي البلدة وكيف ردّها باستهزاء ونَعَتَها بالحمقاء. امتعض الكونت وبصق بصقةً طارت ثلاثة أمتارَ من شدة غضبه، ثم قال:

- حيوانات! أجل إنهم كالأنعام! لقد كان ذلك القاضي الوغد محقاً! فلم يكن قادراً على أن يفعل شيئاً، إن هذا القاضي اريستيدس آل غولداغوين ما هو إلّا عبدٌ حقيرٌ لهم مثل ذلك الخيل الذي داس والدكِ المهرّج!

قالت إيلغا والحزن يعتريها:

- لم أشعر بمثل هذه الإهانة عندما كان أيّ سكرانٍ من عامة الناس أو رجل شرطة يعتدي على والدي ضرباً؛ فالشرطة، يا حضرة الكونت، تمنعنا من أن نعزف في مدن كبيرة، إنه القانون، لكن...

- أنا حقاً أشعر بالإهانة حينما تقوم بالضرب امرأة رقيقة متعلمة من النبلاء! لا يحق لها احتقارنا والتعالي علينا بهذه الطريقة! لا يحق لأحدٍ أن ينظر إلينا بدونية! ثم غطت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء..

- أوه يا إلهي هل ستنجو بفعلتها دون أن تنال جزاءها؟ لو حدث هذا فأنا سأموت من الغيظ والقهر.. ولن أعزف مجدداً أبداً على القيثارة، فلتعزف وحدكَ يا أبي! ولتبع القيثارة!

ثم غطت وجهها بمئزرها وتابعت البكاء. علا صوت صفير نَفَس تسفيبوبيتش، وسكت الكونت مفكراً ثم قال:

- هذه حقاً إساءة شديدة، ولكن كان عليّ أوّلاً أن أستوضح الأمور يا آنستي، قبل أن أقطع وعوداً لك، لقد كنت كاذباً، لا أستطيع الوفاء بوعودي لك، يا لتبجحي! ليس باستطاعتي أن أفعل شيئاً لمساعدتك!

- ولم لا؟

- إنها امرأة يا عزيزتي.. فليس من المعقول أن أبارزها! الأمر معقد يا إيلغا، علينا تقبل الوضع..

- لا يمكنني ذلك، لا أستطيع تقبل الأمر! لا أستطيع!

- لأنكِ يا عزيزتي عاجزة عن الرضوخ، فأنت ابنةٌ لمتسوّلٍ يعزف على الكمنجة، وأنا أعجز عن مساعدتك لأن هذه الشيطانة -فلتذهب إلى الجحيم- امرأة.

- إذن وما الذي عليّ فعله؟ لا يمكنك تصديق والدي، حقاً فهو أيضاً لا يستطيع تقبل هذه الإهانة! هو فقط يحاول أن يخفي غضبه عني.. سأتوجه إلى فينّا أو إلى بودابست! وأقاضيها في المحكمة.

- لا أظن أنك ستجدين محكمة...

- بل سأجد المحكمة! أنت أيها الكونت تنتمي إلى النبلاء، ذكيّ ومعروفٌ عند جميع النبلاء.. لستَ من العامة مثلنا! يمكنك أن تقوم بكتابة رسالة إلى أيٍّ من القضاة هناك ليقبل محاكمتها بالقانون؟ لن تتكلف شيئاً، فعليك أن تكتب الرسالة فحسب، وسينفذون أوامرك!

قاطعها تسفيبوبيتش:

- هذا يكفي يا إيلغا! لقد ملّ الكونت من سماع هذا الهراء! يكفي! إنك تسيئين إلى صبره الشديد معك!

قال الكونت:

- لا يمكن تفسير تفكيرك هذا يا إيلغا إلا بأنك لا تفهمين الحياة وكيف تسير الأمور، لقد أخبرتِني منذ قليل بمدى تعاستك. وتصرفاتُكِ تدلّ على أنك طفلة مدللة لا يمكنك التمييز بين النحاس والحديد! كم بلغت من العمر؟ السابع عشر؟ ألم يأنِ لك

فهم هذه الحياة يا آنسة؟ هذه الحياة هي مزيج من القذارة اللزجة والسخافة، هي هراءٌ رخيص لا قيمة له ولا يمكن تفسيره، كحفرة ملئت بشتى أنواع القمامة، لقد آن لك أن تفهمي هذه الحياة يا حسناء! وماذا تريدين منها بالضبط؟ أتريدين الأموال والنعيم؟ أهذا ما تسعين إليه؟

ثم احمرَّ وجه البارون، وأدخل يده في جيبه:

- إذا كان هذا ما تريدينه حقاً، فأنت تحلمين! فهذه الحياة هي دنيا غير عادلة ولا يمكن تحملها.. فإذا كنت لا تحتملين هذه الحياة وعيشتها، فيمكنك الرحيل إلى الحياة الأخرى، السُّمُّ سيخدمك في تحقيق هذا.. أنت طفلةٌ غبية، هذه هي الحقيقة.

ثم أخرج الكونت من جيبه زجاجة مجدّلة، وشرب منها بنهم شديد، ثم تابع:

- هذه الحياة مقرفة يا صغيرتي! والظلم هو القانون الثابت فيها! ولقد قُدّمت إلى الإنسان عقاباً له على دناءته.. يا صغيرتي! لو لم أكن متيقّناً تماماً من حقارتي لتوجهت دون تردد إلى الحياة الأخرى منذ زمن بعيد، فأنا أملك المسدَّس والرصاص.. ولكني أحدث نفسي: تعذبي أيتها النفس! فهذا ما تستحقينه فعلاً! تقبّل العقاب يا أرتور! وأنت يا صغيرتي تعلّمي أن تحدثي نفسك بفلسفة.. فهكذا تصبح الحياة أكثر سهولة مع ما قدِّر لك....

ثم شرب البارون المزيد من الخمر:

- ولكنْ هناك شيء واحد يساعد في التوفيق بين الإنسان وحياته، لنقل إنه شيء سحريٌ قام الشيطان بصناعته! إنها حقاً تبرد

غضبي وتزيل أشواك نفسي.. فترةً وجيزة من غير ريب، هذه هي قوة الخمر يا عزيزتي.. هيا يا إيلغا اشربي القليل منه! إنها فودكا جيدة..

هزّت إيلغا رأسَها رافضةً، ونظر تسفيبوبيتش إلى زجاجة الفودكا وهو يتمنى رشفة منها، ثم نقل بصره إلى الأرض بخجل، ثم تابع أرتور:

- خذي رشفة أيتها الغبية! هيّا فرشفة واحدة سوف تخفّف عنك.. جربيها!

أيّده تسفيبوبيتش:

- جربيها يا إيلغا.

أمسكت إيلغا زجاجة الفودكا ورشفت منها رشفة صغيرة ثم تجعّد وجهها.

- الآن دورك يا سيد...

ثم أردف البارون مخاطباً تسفيبوبيتش:

- اشرب يا أيها العجل السمين.

تهلّل وجه تسفيبوبيتش، وابتسم ابتسامة عريضة كأنه التقى صديقاً حميماً يشتاقُ إلى رؤيته، فأمسك الزجاجة بيديه ورفعها بفرحة كبيرة إلى فمه: رشف بحذر رشفتين ثم وضعها على الأرض.

فقال أرتور:

-اشربها كاملة يا رجل! لا تخجل، لديّ زجاجة أخرى.

تناول السمين الزجاجة وعَبّها في ثانية واحدة، وقال البارون:

- أذكر أنني قد رأيتك من قبل يا رجل! لكني لا أذكر أين ومتى! وجهك يبدو ليس غريباً..

- ألا تذكرني؟ أنا النادل سيئ الحظ من مطعم البلياردو الذي قمت بكسر أسنانه في براغ.

- أوه نعم.. فقد كنتُ سيئ الخلق وقتذاك.. أقدم إليك أسفي يا سيدي فأنا ليس بوسعي إعادة تركيب أسنانك الآن.

أخرج الكونت من جيبه زجاجة الفودكا الأخرى وكيساً ورقياً فيه خبز وأجبان ومرتدلّا، فقسم البارون المرتدلا إلى نصفين ثم ناول تسفيبوبيتش النصف، أما النصف الآخر فقسمه مناصفة بينه وبين إيلغا، ثم قال:

- هيا يا سادة تفضلا إلى الطعام لا تخجلا، كلي يا صغيرتي! فالجبن كله لك وحدك، نحن لن نأكل منه.

لم ينتظر تسفيبوبيتش وإيلغا البارون أن يدعوهما إلى الطعام فقد بدآ بالأكل فوراً بشهية كبيرة، كالأطفال الجوعى، لم تمض دقائق قليلة حتى قضيا على الطعام كلّه إلّا من قطعة مرتدلا تركها تسفيبوبيتش ليأكلها بعد شرب الفودكا.

كان للفودكا تأثيرٌ فوريّ في البارون، فما لبث أن تهلّل وجهه واحمرّ، ورقصت عيناه فرحاً، وتمدد على العشب متوسداً يديه وبدأ بالابتسام. أمّا تسفيبوبيتش فلم يكن للفودكا تأثير فيه وبقي على حاله، أما إيلغا فقد أثارت الفودكا كل الأحزان في نفسها، انعزلت في زاوية بعيداً عن الجميع وغرقت في تفكير عميق،

- ارتوِ أيها العجوز! اشربْ حتى الثمالة، فهو خيرٌ لك من أن تكون واعياً مليئاً بالأحزان، ففي الفودكا نجاتنا، فلولاها لانتهى أمر البشرية! فلنشرب في صحة الفودكا! أتذكر لماذا كسرتُ أسنانك؟

- من غير شك أذكر يا سيدي البارون! لقد كنتَ مخموراً وأردتَ أن ترمي لي كرة البلياردو وأمرتني أن ألقفها بفمي، وعندما لم أنفذ رغبتك، عاقبتني بشدة..

تمتم البارون:

- حقير.

- من هو الحقير؟!

استدار البارون ناحية إيلغا ثم قال:

- أتعلمين يا جميلة! إنك لتذكّرينني بتلك الفتاة التي أحببتها حين كنت طفلاً، كانت هذه الفتاة من نسج الخيال، لم تكن مِن عالمنا، كانت المربية تحكي لي قصَّتها كل ليلة، تخيلتها مثلك تماماً، كانت تلك الجميلة التي لا يزيد طولها عن طول الإصبع، تعيش بعيداً في أحد العوالم، داخل وردةٍ من الخزامى: تجلس في مقدمتها وتتأمل في خلق الله، وتشغل نفسها بالاعتناء بالأزهار، وتجمع الندى في زجاجات لتشرب وتستحمّ به، وتنشد الأناشيد بصوتها العذب، وتأكل فقط من العسل الذي يحضره النحل لها. كانت ثيابها من أوراق الأشجار والأزهار، وكانت تطبِّبُ المخلوقات: فتداوي الجراح، وترقع الأسنان.... وفي مرة داوت جندباً كُسِرت قدمه في معركته مع العنكبوت، فأجرت له عملية بمهارة فائقة غبطها فيها

أمهر الأطباء، لكن مهنة الطب لم تشغلها عن المهام الأخرى، فقد كانت تساعد فقراء الحشرات فتخيط لهم الملابس، وترقع معاطف الزيزان اللامعة والدعاسيق.. كانت محبوبة جداً بين الحشرات فهي تعشقها، من غير ريب فهي لم تبخل عليهن بأيّ شيء فتصدقت بكل ما تملكه على الديدان الفقيرة التي تأتي إليها طلباً للطعام، وكانت دائماً ما تلقي المواعظ والنصائح الرائعة والصادقة على الحشرات، فقد أبكت مجموعة من اليعاسيب بعد أن ألقت خطاباً عن الكسل فراحت هذه تعمل بجدٍّ في تجميع رحيق الأزهار. وكانت أيضاً تعقد قران بعض الفراشات وتجهزهن بثيابٍ من الموسلين الرائعة الجمال، وتعقد أيضاً قران الجداجد، لكن بشرط واحد ألا يزعجن زوجاتهن بالصرير ليلاً، فكانت كالأم لهنّ. جاءها مرة عنكبوت ذئبيّ راجياً إياها أن تركّب له أسنانه، ففعلت وما أن انتهت من تركيبها وزال الورم، حتى قال العنكبوت الناكر للجميل:

- أنت لا تروقين لي يا فتاة، وأنا لا أحبك، لكني أحتاج حقاً إلى النقود، ففكرتُ في أن آخذ بعض النقود بوصفها ضريبةً من الحشرات التي تقومين بإطعامها وإلباسها ومداوات جراحها وتعليمها، ما رأيك في هذا؟

- هكذا إذن! إذا لم تصلني موافقتكِ بعد أيامٍ ثلاثة فسأقوم بقتلك بهذه الأسنان التي ركبتِها لي.

وكشّر لها عن تلك الأسنان المخيفة ثم خرج.

قامت الفتاة فأخبرت جميع الحشرات بتهديد العنكبوت الذئبي لها، فقرّرنَ التعاون ومساعدتها، فاجتمعنَ حولها يُحِطْنَ بها من جميع الجوانب متأهّبات للدفاع عنها ورُحْن يهتفنَ:

- نموت في الدفاع عنك!

فحضر العنكبوت الذئبي وقال:

- إذن فهل توافقين على عرضي؟

- لا، لا أوافق ولا داعِيَ لإثارة المشاكل! فلديّ من يذود عني!

- دار العنكبوت بنظره على مَنْ حولها فلم ير سوى متخاذلين يرتعدون خوفاً، فأطلق ضحكة مدوّيةً، ثم انقضَّ على الفتاة البريئة بأسنانه القوية فقتلها فوراً أمام مملكة الحشرات كلّها، ثم عاد بعد ذلك إلى منزله. وضعت الحشراتُ الفتاةَ في تابوتٍ من شمع النحل، وقامت النملات بحفر قبرٍ لها، وسارت البرغشات خلف نعشها ينشدن ويعزفن الألحان الحزينة، وقام الزيز الذهبي بإلقاء خطاب التأبين.. فأقمنَ لها جنازة عظيمة، وبعد مراسيم الدفن كان بانتظارهنّ مأدبة طعام فخمة، فأكلنَ وشربنَ حتى التخمة، نِمْنَ بعد ذلك نوماً عميقاً، ثم قامت أم أربع وأربعين بجمع الصدقات لبناء تمثال لتخليد ذكرى الفتاة الطيبة، وعاد كلٌ إلى بيته وحياته.

تساءل تسفيبوبيتش:

- وكيف انتهت القصة؟

- كيف تتوقع أن تنتهي؟ هل تتوقع أن ينال العنكبوت جزاءه ويحاكم؟ من غير ريبٍ، لا! لقد كانت مربيتي جيدة، لم تكن لتخبرني بالأكاذيب حتى في القصص، فلا ينتصر الخير دائماً، فالعنكبوت الذئبي لا يزال في بيته يلتهم الطعام، والحشرات الجبانة ضعيفة،

تذكر المأدبة الشهية أكثر من الفتاة المسكينة، رَحِمَكِ الربُّ يا حاضنتي العزيزة! لقد كانت تعرف الحياة جيداً! هيا اشربْ في صحتها أيها العجوز! هل أعجبتكِ القصة يا إيلغا؟ أنتِ حقاً تذكّرينني بهذه الفتاة؟ هل سيلتهمكِ العنكبوت يا إيلغا؟ هئ هئ هئ، ولم لا؟ سيأكلك حتماً إن تمكّن من ذلك! فأسنانه حادّة! هيّا التهمها أيها العنكبوت.... إيلغا! أنتِ لستِ معنا! تبدين شاردة الذهن!

تنبهت إيلغا ثم التفتت إلى أرتور بعينيها الذابلتين وقالت:

- لا يمكنني نسيانها!

- أووه! لا يزال هذا الأمر يشغل تفكيرك؟ عليك الاستسلام للأمر الواقع يا فتاة! فكلام ذلك القاضي الوغد صحيح. ولا يمكنك فعل أيّ شيء بخصوص هذا الأمر، فإمّا أن تحضري لوالدك ماء الرصاص وإمّا أن تصبحي كونتيسة!

-آه نعم من غير شك كونتيسة! وهل من الممكن لفتاة مثلي أن تصبح كونتيسة؟

- يمكنك إذا أمكنكِ الزواجُ بكونت مثلاً، وإن لم تتمكني فلن تكوني كونتيسة. أنا أشك في قدرتك على ذلك.. لكنْ إنْ ألحقْنا بعض القسوة والكِبر بوجهك البريء فربما يمكنك ذلك، ربما كنت أنا البارون فون زاينيتش زوجِك، أتصدقين هذا؟ هل كنت تقبلين الزواج بي يا إيلغا؟

- لكنك بارون! ولكن نعم، كنت سأقبل الزواج بك حتى إن كنت بارونا!

- ألا تعلمين أني بارون وكونت في الوقت نفسه.. هئ..
هئ.. هئ.. أَتَرَيْنَ أنّي سأقوم بخطوة مجنونة كهذه؟ ولم لا....
سيكون الأمر ممتعاً!

ثم فكر قليلاً وأردف:

- ولكن لا.. هذه سخافة.. فالأمر لا يستحق.. من غير شك
فالفتاة تروق ليْ في القصة، لكن الزواج أمر مختلف، يجب أن يعود
عليّ بفائدة ومالٍ كثير لا يقل عن المليون.

رد تسفيبوبيتش وقد وصل مفعول الفودكا إلى عقله:

- ليس من المروءة يا حضرة الدكتور أن يتزوج الرجل طمعاً
في المال! زواج المصلحة يا سيدي المحترم يُعَدُّ أمراً خسيساً!

- ليس بيدي حيلة! كنت لأصبح خسيساً، فأنا حقاً أحتاج
إلى المليون بشدة... فبالمليون كنت سـ.... ليس ضرورياً أن تعرف..
ولكني كنت سأريهم!

هل تقبل أن تتزوج عجوزاً مثلاً؟

- بل أنا أقبل أن أتزوج الشيطان نفسه... لأفوز بالمليون!
فبهذه المليون أستطيع قلب الجحيم بناره وشياطينه، لا أقصد
جحيم الحياة الأخرى، بل أتكلم بهذه الحياة التي نعيشها، فأنا إذا
امتنعت عن التصرف بدناءة، فأنا لا أسمح للآخرين بارتكاب
الدّناءات في حقي.

نظر أرتور إلى إيلغا:

- لِمَ أنتِ، يا زهرة الخزامى، لست مليونيرة؟ فلو كنتِ كذلك لكنتُ تزوجتك فوراً، فيكون لي زوجة حسناء، وتحصلين أنت على لقب الكونتيسة كما نصحك بذلك القاضي.

تنفست إيلغا بعمق:

- كفاك مزاحاً أيها البارون!

- أتكلم بجدية... إن حصلتِ على المليون فحتماً سأتزوج بك! سأمنحك لقب البارونة! هيا حاولي الحصول على المليون!

فقال تسفيبوبيتش: .

- دعونا نشرب المزيد من الفودكا! فقد بدأتما الحديث بالتُّرَّهات والمستحيل.. فلنغير هذا الموضوع! فمن أين لنا بمليون؟ أظنّ أنّ ابتلاع رأسي أسهل من أن أملك مليوناً... فلنتحدث بشيءٍ آخر! فهذا الحديث يولد الغيرة والحقد!

- هيّا.. اصمت أرجوك! دعنا نحلم فالأحلام لن تكلفنا شيئاً! سأقول مجدداً أيها العجلِ السمين، لو أنك تملك مليوناً لتقدمتُ إلى الزواج بابنتك ولوضعتها بين أزهار الخزامى.. أووه هل ثملت؟ إن إيلغا حقاً تروق لي! انظر ما أجمل أنفها! يا إلهي! هيا يا إيلغا حاولي الحصول على المليون!

- ومن أين لي بالمليون أيها البارون؟

- يا لك من ساذجة يا فتاة! أنت بريئة جداً! من أين لك بالمليون؟ حسناً هناك طريقتان للحصول على مليون، إحداها صعبة والأخرى سهلة، أحد هذه الأساليب الصعبة هي بالعمل الشاق

والمتفاني ليلاً ونهاراً فيحرمك العمل من النوم والمرح والتمتع بالحياة كما يحرمك من الصحة، وعندما تحصلين عليه تكونين قد وصلت سنّ الشيخوخة، فلا يكون للزواج أي معنى. هذه الطريقة لا تلائمك لأنك امرأة تفتقدين إلى الحكمة ولا بد لك من الزواج. أما الطريقة السهلة للحصول على المليون فلها أساليب عدة، وقد تكون عواقبها وخيمة ولكن عليك أولاً التغلب على شيء مهم وهو الضمير، فإن تغلبت عليه سهُل النهب والسلب والخداع، وكلما تصرفت بذكاء وخبث أكبر جنيتِ المال سريعاً، لتصبحي البارونة فون زاينيتش. وهذا النهب لا يكون على الطريق فحسب بل يمكن أن يكون في المكاتب المغلقة، لكن هذا الأسلوب سيكون خطيراً إن لم تتصرفي بذكاءٍ كبير، ويمكن أن تكون نهايتك بسببه. هناك أسلوب آخر أيضاً: وهو أن ترثي من أحد أقربائك... وأسلوب آخر: تقوم معظم النساء باستخدام هذه الطريقة في كسب الأموال السهلة وهي من غير ريب تجدي نفعاً مع الرجال، وتعتمد على حسن استغلال الشخص لجمال جسمه، فكلما كان الشخص أكثر جمالاً أصبح أقرب إلى تحقيق أهدافه، وباعتقادي هذا أكثر ما يناسبك يا إيلغا!

ردّ تسفيبوبيتش:

- بل هو أقلّ ما يناسبها! لا يليق بها أبداً! انسَ هذه الطريقة يا سيدي البارون! فهذه الطريقة ماجنة لا تناسب طبيعة إيلغا فهي...

- طفلة بريئة؟ لا مشكلة دعها تتعلم! عليك أن تعلمها وتخبرها بِمَ عليها الحذر منه! سأخبرها أنا... أوّلاً يا إيلغا عليك أن تتعلمي أن تلبسي كالمجتمع الرّاقي، وأن تتعلمي الغنج والدلال،

وأن تُظهري جمال ساقيك في الوقت المناسب، حينئذ فستحصلين على أربعة عشر ألفاً على الأقل لقاء قبلةٍ! لكن في هذا الوضع الذي أنت عليه فلن يدفعوا لك الكثير، أما إذا كانت لك عربتك الخاصة، أو مقصورة فسيدفعون الكثير...

-أووه... يكفي أيها البارون! بالله عليك ما الذي تعلمه إيّاها!... فلنغير هذا الحديث! أيها الدكتور! لنتحدث بموضوعٍ آخر... نعم.. هل صحيح ما يقال عنك إنك تحولت إلى دين اللوثرية منذ أسبوع؟

-نعم لقد فعلت.... الطريقة الأخيرة هي الأنسب لك يا إيلغا، وهي ليست طريقة بشعة على كل حال، ما عليك سوى اكتساب عادات المجتمعات الراقية، والتكلم مثلهم، وأنا أُؤكد لك أنك ستحصلين على المليون، فهذا الأسلوب هو الأكثر انتشاراً، فلو كانت معظم النسوة يمتلكن جمالك، لتبعن هذا الأسلوب حتماً.. ولو أنني قابلتك منذ ست سنوات أو سبع لكنت أنا أيضاً اشتريتك أيتها الحسناء.

أسرع تسفيبوبيتش في القول:

-تمهل أرجوك أيها البارون، حباً في الله! تمهل، لن نترك لخيالنا العنان! ثم التفت إلى إيلغا يتملكه الخوف.

كانت إيلغا تستمع بانتباه شديد لما يقوله البارون، دون أن تشعر بأي خجلٍ أو إحراجٍ من كلامه، ثم قالت:

-حسناً، ولكن هل أنتَ تقبل حقاً الزواج بامرأة رخيصة تبيع نفسها؟

- نعم أقبل فأنا أيضاً أبيع نفسي عندما أقبل مالاً من زوجتي! وهكذا.. ولكنّي أطلب منك أمراً يا إيلغا..

ثم اعتدل وأدخل يده في جيبه مخرجاً قطعة نقد ذهبية:

- تفضلي يا صغيرتي، خذي هذه القطعة الذهبية، واذهبي إلى أقرب مدينة تصلين إليها وتصوري، ثم ابعثي لي بتلك الصورة إلى عنواني هذا.. وناولها قصاصة من الورق.

- فأنا دائماً أرغب في رؤية فتاة الخزامى! وأرغب أن أحمل صورتها معي في كل وقت... هل سترسلينها إليّ؟

- أجل، سأفعل.

- رائع، لقد سعدت حقاً بلقائكما أيها الصديقان، إلى اللقاء فأنا أرغب في النوم قليلاً. ثم ألقى جسده على الأرض متوسداً حقيبة الصيد خاصته.

- إلى اللقاء، أسعدني حقاً التعرف إليكما. أنتظر صورتك يا عزيزتي، ستكونين زوجتي إن حصلت على المليون...

انحنى تسفيبوبيتش قائلاً:

- نشكرك على كرمك أيها الكونت، لقد تكرمت بإطعامنا، فهل لنا أن نقوم بالعزف لك رداً على جميلك، فما ألذَّ النوم على نغمات الموسيقى الهادئة!

- نعم أرجوك!

هيّأ تسفيبوبيتش كمنجته ثم بدأ بعزف مقطوعة لبوكاتشيو، وتبعته إيلغا بالعزف على قيثارتها.

ابتسم البارون ابتسامة رضاً، ثم أغلق عينيه مستمتعاً بالموسيقى.. وعندما انتهى تسفيبوبيتش وإيلغا من العزف وأرادا الرحيل، نظر البارون إلى إيلغا ثم غمغم:

- حسناً... حسناً.. انتظري يا إيلغا، خذي هذه للذكرى!

ثم تناول من سلسلته إحدى قطع الحليّ التي يرتديها وأعطاها لإيلغا، ثم وضع رأسه على جعبة الصيد وغرق في النوم.

3

استيقظ البارون أرتور في ذلك اليوم والشمس توشك أنْ تغرب، فكانت تلقي أشعتها الذهبية فوق الهضاب والأشجار وأبنية القرية الصغيرة. كان المكان يتلألأ بنور الشمس الأرجواني الذي يمتد ليفرش ثلث السماء تجاه الشرق، وكانت السماء صافيةً تماماً من الغيوم، وكل ذلك يبشر بليلةٍ رائعة.

يظهر خلف الغيضة راعٍ قد عاد توّاً من عمله يعزف على الناي أنغاماً بسيطة عشوائية، لكنها عذبة، فكانت قرية غولداغوين كلها: بغياضها وغاباتها وسهولها وأنهارها، تخلد إلى النوم في كل ليلة على هذه الأنغام.

نظر البارون حوله فرأى زجاجتي الفودكا مرميّتين على العشب بجانب صرة الطعام الفارغة، أما العجوز البدين والحسناء الشقراء فقد غادرا، فتذكر الحديث الذي دار بينهم فأشرق وجهه بابتسامة عريضة، خاصة عندما وجد على صدره قصاصةً من الورق معلقة بأزرار قميصه، مكتوباً عليها بقلم الرصاص:

(عزيزي البارون! أنت حقاً شخصٌ نبيل، فأنت الوحيد الذي عاملنا باحترام، لم نكن نعرف من قبلُ معنى المعاملة الجيدة إلاّ

سماعاً.. لذا فأنت أول شخص لن أذكره بسوء، بل بكل حب، لقد تأثرنا كثيراً باهتمامك بنا، إلى اللقاء يا سيدي، فليمنّ عليك الله بالسعادة! سأبعث لك بالصورة.

عزيزتك- إيلغا)

انتهى أرتور من قراءة القصاصة المكتوبة بخطٍ جميل المرةَ الثانية ثم قال بصوتٍ عالٍ:

- ودون أيِّ أخطاءٍ نحوية! هذا رائع! تحيا إيلغا!

ثم قام بإخراج قلم صغير من القصدير من مذكرته، وكتب على قصاصة الورق: «ذكرى من حسناء زهرة الخزامى»، 13 من حزيران (يونيو) ثم طواها ووضعها داخل مذكرته.

- هيّا فلأذهبْ، فقد حان موعد وجبتي الدسمة!

تأبط البارون أرتور بندقيته ثم مضى متجهاً نحو القرية التي أخذ ضوء الشمس الذهبي في الانحسار عنها تدريجياً بعد أن بدأت الشمس بالغروب.

بدأ البارون المشي في طريق ضيق ممهد بالحصى، يصل إلى القرية ويتلاقى في منتصفه مع سكك القطار الحديدية، وعند التقاطع كان يقع منزل حارس الحراج بلاوكير.

عندما وصل البارون إلى التقاطع مال، ثم رفع قبعته تحيةً، فقد كانت زوجة حارس الحراج بلاوكير تجلس في شرفة منزلها تطرز غطاء للمائدة، وتلبس قبعة ضخمة ذات شرائط عريضة على رأسها، تنظر من تحت نظارتها التي ورثتها عن أجدادها، وكانت نظارتها

ترتكز على مقدمة أنفها العريضة.. ردّت العجوز تحية البارون بابتسامة لطيفة،

فقال الكونت أرتور:

- أسعد الله مساءك، يا فراو مارتا، ألم تصلني رسائل؟

- بلى، رسالة واحدة، وعليها ختم أيها البارون...

- وهل كُتب العنوان بخط يد بيلتيزير؟

- أجل..

- احرقي الرسالة يا مارتا، أعلم ما فيها مسبقاً، فلا بد أنها مليئة باللعنات من ذلك اليهودي على لسان سيلفيا، لأنني اتبعت دين اللوثرية... أعرف محتواها دون قراءتها. آمل أن زوجك بخير يا مارتا؟ وألفريلين أيضاً بخير؟

- أشكرك.. هذه هي الرسالة السادسة التي أحرقها.. هذا ليس بالعمل الجيد أيها البارون؛ فقد خصصوا جزءاً من وقتهم ومشاعرهم في كتابتها، إنها لقسوة منك! أين تذهب في هذا الوقت؟

- أتناول الطعام...في مكان ما.. لا يهم...

- ولا يهم مع من؟

- بالضبط..

- لولا أن بلاوكير شديد القلق، لدعوتك إلى تناول الطعام معنا، فهو يظل قلقاً عندما يأتي لزيارتنا شخصٌ نبيل. يقوم الجنرال فريختيلزاك بزيارتنا عادةً لكنه عجوز لا يشعره بالقلق... أما أنت

فيخاف ويقلق منك، فإن تناولت الطعام عندنا، فسيتردد على ألسنة جيراننا أنك تتقرب من ابنتنا، والله أعلم بماذا سيتفوهون أيضاً.. فمن ينتمي إلى النبلاء فلن يتقدم إلى الزواج بأمثالنا... لكنه يطلب... تعرف ماذا.. وهذا سبب قلق بلاوكير... أما الجنرال فريختيلزاك فأمره مختلفٌ كلياً!

- لا عليك يا مارتا! سأتناول طعامي في أي مكان.

و الحقيقة أيها البارون أن طعامنا اليوم ليس جيداً، فالخدم لا يتقنون شيئاً في هذه الأيام، إنهم يصعب التعامل معهم!

- إلى اللقاء يا مارتا! بلّغي تحياتي للجميع.

- إلى اللقاء أيها البارون! ثم انحنى تحية لها وأكمل سيره في الطريق الضيقة.

كانت العتمة قد أسدلت ستارها على القرية، وبات الهواء في الحقول نديّاً. مرَّ خلفَ البارون مسرعاً، القطارُ المسائي الذي يقوم بنقل الناس إلى الضياع والغابات.. تسدل العتمة ستارها على الغابات قبل الحقول، فمازال الحقل مضيئاً حتى إن المرءَ يستطيع أن يضع الخيط في الإبرة!

وعندما ساد الهدوء، بعد أن ابتعد ضجيج القطار، سمع البارون أرتور وقع خطوات خيل صادرٍ من خلفه، فوقف والتفت.

اندفعت تجاهه فارسة على حصان أدهم خلّاب، مرت قريباً من البارون ورمقته بعينيها، ثم توقفت على بعد أمتارٍ منه وصاحت متسائلةً:

- البارون فون زاينيتش؟

- نعم إنه هو.

دنا البارون من الفرس وانحنى تحية، كان الظلام يسود الغابة، ولكنه لم يمنع البارون من رؤية حسن الفارسة وقدّها المشوق الذي كان كل شيء فيه يوحي أنّها دوقة أصيلة.

لو كان تسفيبوبيتش وإيلغا حاضرَيْن لتعرفا على هذه الفارسة، إنها الكونتيسة غولداغوين، التي كانت تلقب قبل زواجها بغيلينشترال. كانت تحمل بيدها سوطها الذي ضربت به تسفيبوبيتش على وجهه. مدت يدها إلى البارون قائلة:

- أووه لقد عرفتك من النظرة الأولى! لم يتغير شكلك إلا قليلاً.. أيمكنني التحدث معك؟ فالرسالة الأخيرة التي أرسلتَها إليَّ كانت مليئة بالغضب والكراهة... أما زلت تحتقرني كالسابق؟

أمسك أرتور بيدها الناعمة وابتسم قائلاً:

- أووه لا، تلك الرسالة كانت غلطة يجب إحراقها، مضت أربع سنوات منذ كتابتها، أخبرتك فيها أنني أحتقرك وأكرهك بشدة لأنك رفضت الزواج من حبيبك الذي جار عليه الزمن بسبب جشعك، ولكني الآن لا أستطيع أن أسخط عليك بسبب جشعك، فمنذ ساعاتٍ ثلاث كنت أقول إنّ ارتباطي المقبل سيكون بالنقود.. لا أزال حياً أرزق في هذه الحياة ولم أقتل نفسي بعدُ لغاية واحدة فحسب، هي أن لي هدفاً في هذا العالم عليَّ تحقيقه.. وهو التزوج بمليون..

- حسناً إذن! هذا يعني أنك قد غيرت قناعاتك في الأعوام الأخيرة، كم أنا مسرورة بهذه الصدفة التي جمعتْنا! أنا سعيدة حقاً أيها البارون، أقسم إني سعيدة! أشكر الرب لأننا التقينا!

- لم يخطر ببالي أن ألتقي بك في مثل هذا المكان، لِمَ جئتِ إلى هذا المكان؟

- لأنني ببساطة أسكن هنا... ألم تكن تدري؟ منذ زمن بعيد..

- تقطنين هنا؟ لماذا؟

- لأنني لم أعد البارونة غيلينشترال، أنا الكونتيسة فون غولداغوين، فقد ارتبطت منذ سنوات مضت بجاركَ الكونت غولداغوين..

- لم أكن أعرف.. يا لها من أخبارٍ جيدة! لم ألتقِ بهذا الكونت.. أهو وسيم؟

- كلّا.

- عجيب.. أنتِ كما أذكر.. يجتذبك الرجل الوسيم، وقد وقعتِ في حبّي لأني، كما يقول الناس، كنت وسيماً جداً. هل هو في مقتبل العمر؟ ثريّ؟

- شارف على الأربعين.. وهو شديد الثراء...

- من غير ريب فأنتِ تعيشين في سعادة؟

- لا أبداً، فلقد تزوجت بمليون، واتضح لي من خبرة سنتين أنها غلطة كبيرة، فالمليون، كما اتّضح حقيقةً، ليس سبباً في السعادة،

وجلّ ما أقوم به الآن هو الوصول إلى طريقة أهرب بها من هذه المليون!

نظرت الكونتيسة إلى السماء، وقد بدأت تزداد عتمتها ثم ضحكت، وتابعت حديثها ضاحكةً:

-لقد تبدلت أحوالنا أيها البارون! فأنا كرهت ما أحببته سابقاً، وانت على العكس.. فيا لغرابة تبدل أحوال الناس في هذه الحياة المملّة!

-إنك ترغبين في الهروب من المليون بحثاً عن سعادتك، ولكني لا أفتش عن المليون لأسجل اسمي مع السعداء.. الأهداف تختلف، كما تلاحظين..

-ألم تسمع شيئاً أبداً بشأن حياتي الجديدة؟

-لم أسمعْ قطُّ...

-هذا يعني أن الأحاديث لا تنتشر بسرعة... فأنا أسعى إلى الطلاق من زوجي..

-سعيٌ لطيف... وأنت تقطنين عنده؟

-أجل.. هذا غير مألوف بعض الشيء، نعم صحيح.. لكن تجنباً للأقاويل فلن ننفصل حتى يختم على طلاقنا بالشمع الأحمر.. فسأُحلِّق من هنا بعيداً حين أكون حرّة بشكلٍ رسمي.. على كل حال فهذه الأمور لا تهمك.. لقد سعدت بلقاء شخصٍ أعرفه، بل صديق قديم، سعادةً تجعلني قادرة على الإفشاء بكل الأسرار وغير الأسرار... فلتحدثني بأمورك أنتَ الآن.. كيف هي حياتك؟

- كما تلاحظين، أقطن حيث أحبّ..

- هل فارقت العِلم؟ إلى الأبد؟

- نعم، أظن فارقته إلى الأبد...

- وماذا عن ضميرك أيها العالِمِ؟ أمستريح؟

- أوووه.. لقد باعني العلم بما يزيد عن الصفر بشيء بسيط.. ليست بالخسارة الكبيرة..

- أنت أيها البارون زاينيتش تقوم بالتبرير كالطلاب... بما يزيد عن الصفر بشيء بسيط... العلماء الشباب لا حاضر لهم، ولكن المستقبل في انتظارهم، من يعرف، لو أنك أكملت تعليمك لأصبحت تساوي في مجال العلوم أضعاف الصفر ألف مرة.

ردّ زاينيتش مبتسماً:

- هذا تعبير لا يصحّ، فلو ضربت الصفر في ألف فسيبقى صفراً.

تجاهلت الكونتيسة ما قاله وتساءلت:

- ألا تملك نقوداً أبداً؟

- أبداً، هل تحملين بعض النقود؟

- نعم أحمل القليل، لِمَ؟

- ناوليني شيئاً.

أسرعت الكونيسة إلى إخراج صرّة من النقود وناولتها لأرتور، فأفرغ البارون الصرة في يده ثم أعادها إلى الكونتيسة:

- أشكرك، سأعتبرها ديناً، سأرده لك بعد زفافي بيوم، أتعجبين؟ يظهر الاستغراب في عينيك! فأنا لم أطلب المال منك فحسب، بل أتحسر لأنّ ما في صرّتك غير كافٍ.

تأملت الكونتيسة في عينيه، وعلمت أنه يكذب:

- لا أبداً، ما العجيب في أن يستلف البارون أرتور فون زاينيتش من أصدقائه بعض النقود؟ هذا شيء طبيعي، ومألوف..

- ولكنكِ لستِ أحد أصدقائي!

- أنت غريب الأطوار حقاً.. إلى اللقاء! يصعب الحديث معك.

ثم هزّت الكونتيسة رأسَها، ورفعت سوطها وأكملت سيرها في الطريق الضيقة.

4

عندما وصلت الكونتيسة إلى نهاية الممرّ كان الظلام قد غطى القرية والغابات. لا يزال بالإمكان رؤية الجبال ولكن يصعب تحديد معالمها، وبات الناس والمارُّون كالظلال ليس لهم معالم واضحة، وأضيئت المصابيح في بعض الأماكن. وقفت الكونتيسة عند بيتٍ مصنوعٍ من الخشب والقشِّ في أحد حقول الخضار التي يملكها آل غولداغوين. فمنذ زمن بعيد قام آل غولداغوين باستئجار بعضٍ من الأراضي التابعة للقرية لاستنبات زروعهم فيها، وما فعلوا ذلك إلا بدافع الكبرياء، فقد قال أحدٌ منهم مرةٍ:

(كلما قلَّت ممتلكات الآخرين التي تحيط بأرضيّ، استطعت أن رفع رأسي بكبرياء أكثر)...

بالقرب من منزل القشّ كان البستاني واقفاً مع ابنه، وعند مرور الكونتيسة رفعا قبعتيهما وانحنيا تحيةً، اقتربت الكونتيسة منهما ثم قالت:

-عمتم مساء يا فريتز العجوز وفريتز الشابّ! أنا مسرورة لأني وجدتكما. إذ علمتُ أنكما لا تقومان بأعمالكما بشكلٍ جيد، ولديّ مبررات لعدم تصديق مَنْ أخبرني.

انتصبت قامت فريتش العجوز ثم قال:

- نحن نقوم بإنجاز أعمالنا على أكمل وجه، لا نغادر الحقل أبداً، لكن يا صاحبة السعادة إذا كنت لا أروق للسيد المالك أو أتباعه لأي سبب ما، فإنهم يقومون حتماً بطردي فوراً دونَ إزعاج جنابك، فنحن أناس بسطاء، ومن غير اللائق أن يشغلوا حضرتك بأمورنا.

- أتظن هذا؟ لست مخطئاً على كل حال، ولكني أعرف جميع عمّالنا، وتخيل أنّ باستطاعتي التمييز بين الجيد وغير الجيد، وأعرف من أُوقِف عن عمله أيضاً، فعلى سبيل المثال فيمكنني معرفة أن فريتز العجوز خادمٌ مخلص، وفريتز الصغير بليد، وأنه في فصل الشتاء قام بسرقة القُفّاز والعصا من الشماس.. أنا على علم بكل شيء.

لقد وصلتك أخبار سرقة القفاز والعصا، ولم تصلك أخبار... ثم ضحك فريتز ضحكة مصطنعة، فسألته الكونتيسة:

- ما الأخبار التي لم تصلني؟

- هل لجنابك علمٌ أنَّ كلاب مساعد الكونت قد عضّت زوجتي وبنتي منذ أسابيع ثلاثة؟ ليس لك علمٌ بهذا على الرّغم من أن كل أهالي البلدة يتناقلون هذه الأخبار بكثرة منذ ذلك الوقت؟ فكلاب مساعد الكونت لا تحب رؤية ملابسنا المتواضعة، وتقوم بتمزيق ملابس الفلاحين، وهذا يُدخل الفرح في نفس المساعد، فكلابه تطيح بنسائنا على الأرض وتقوم بتمزيق ملابسهن.. فتظهر أجسادهن عارية يا صاحبة السعادة.. ومساعد الكونت يستمتع برؤية أجسادهنّ!

- حسناً إذن... لم أكن أعلم ذلك.. ماذا تريد؟

- إن زوجتي سقيمة، وبنتي تشعر بالخجل من الظهور أمام الناس، لأن رجال البلدة قد رأوا جسدها، بسبب كلاب السيد المساعد.

- نعم، نعم... سأستعلم هذا الأمر، أودّ سؤالك عن أمر ما.. هل صادفت اليوم في طريقك عازفاً يجوب المكان مع ابنته الشابّة؟ عجوزٌ بدين وابنة له يافعة، تحمل على كتفها قيثارة؟ ألم ترهما قريباً من هنا؟

- لا أذكر أنني رأيتهما يا سيدتي! قد يكونان مرّا من هنا! وربما لا! كثير من الناس يقومون بالمرور من هنا، ولا يمكننا أن نراقب الجميع ونتذكرهم...

حدقت الكونتيسة إلى الأفق المعتم، ثم سألت وهي تشير بسوطها إلى شخصين يظهران في الأفق:

- ربما هذان الشخصان هما الشيخ وابنته؟

أجابها فريتز الصغير:

- إنها رجلان.

ردت الكونيسة:

- من المحتمل أنهما توقفا في البلدة للراحة والمبيت، إن فعلا فسيمرّان من هذه الطريق في الغد.. إن مرّا فقم بإرسالهما إليّ فوراً.

قال الشيخ:

- من غير شك فسأفعل يا سيدتي؛ عجوز سمين وابنته الشابة، حسناً، وما حاجتك إليهما يا كونتيسة؟ هل قاما بالسرقة؟

- ولماذا تظن أنهما سارقان؟

- هذا سهل يا صاحبة السعادة! فآل غولداغوين يشغلون أنفسهم كثيراً بالتفتيش عن السرقات، هكذا جرت العادة، وفي آل غولداغوين لا يقوم بالسرقة إلاّ الكبار، ويعتبرون الجميع لصوصاً.

- مممم... حسناً إذن! يمكنك البحث ابتداء من الغد عن عملٍ في مكانٍ آخر، لا أرغب في رؤية أحدٍ من آل فريتز في أرض غولداغوين! ثم أمالت عنق جوادها وسارت نحو الطريق الضيقة.

قال فريتز الصغير:

- يا لها من حسناء! ما أجملها!

رد فريتز العجوز:

- أجل حسناء، ولكن ما شأننا نحن في هذا؟

- جمالها لا يُقهر! أحلف بالله يا أبي إني لم أسرق القفاز والعصا! لم أكن يوماً سارقاً! وليبتليني الله بالعمى إن كنت أكذب في هذا الشأن. إنهم يفترون عليّ لا أعرف لأي سبب.. وقد صدّقت الكونتيسة هذه الكذبة! أوغاد!

- لكني لن أسكت على افتراءات هؤلاء الأوغاد! لن أتركهم يسخرون منا دون عقاب، سأقوم بالسرقة حتماً، فعندما كانت الكونتيسة الحسناء تتكلم معك، كنت أتملّى وجهها الخلّاب ووعدت

نفسي بأن أسرق! سأسرق شيئاً عزيزاً على الكونت لا يجرؤ أحد من مساعديه على الاقتراب منه، وسأفي بوعدي هذا.

استلقى فريتز الصغير على العشب وغرق في تفكير عميق، فأخذ يحلم أحلاماً ورديةً، بعيدة كل البعد عن أحلام الفلاحين البسيطة، أحلاماً شاعرية استولت عليه قلباً وقالباً، فما لبث أن شيّد قصوراً ضخمة في خياله، وما كان متأكداً من استحالة تحقيقه منذ ساعة فقط، أصبح الآن -كقصص الأطفال الخيالية- غايةً وهدفاً يسعى إلى تحقيقه مهما كانت العواقب، وكان عليه أن يحمي قصر أحلامه ويجعله حصيناً...

أحس فريتز الصغير أنّ رأسه المليء بالأحلام قد بدأ بالدوران؛ فوقف وفرك عينيه، وصاح ضاحكاً:

- أعدك بأنني سأسرق! وليبحثوا عني بعد ذلك!

في طريق عودة الكونتيسة إلى منزلها لقيت البارون أرتور مجدداً. كان في الطريق لتناول الطعام، فهتفت متسائلةً:

- علينا أن نلتقي مجدداً!

- إذا ما رغبت في ذلك.

- يمكننا التحدث في أشياء عديدة، ففي هذا الملل الرهيب الذي أعاني منه أنت كنز بالنسبة إليّ، لديّ فكرة: لِمَ لا نقوم بالاحتفال بيوم مولدك يوم الخميس من الأسبوع القادم؟ هل رأيتَ، أنا لم أنسك، ما زلت أذكر يوم مولدك.. ما رأيك؟

- أهلاً بكِ..

- علينا الاجتماع في مكان... ما رأيُكَ في ساحة التيس البرونزي؟ هل تسمع عنها؟

- أجل.

- لن يقوم أحد بمنعنا من تذكر ماضينا، سنلتقي في ساحة التيس البرونزي في تمام السّاعة السابعة.

- أنا سأحضر النبيذ.

- رائع، وداعاً. بعد ذلك سيكون حديثنا بالفرنسية أيها البارون، لا أزال أذكر أنك تكره الألمانية، أما بالنسبة إلى المنافق والأذكياء فأعد التفكير. وداعاً.

ضربت الكونتيسة جوادها بالسوط، ثم اختفت في الغابة التي تزداد عتمتها.

لقد كانت البارونة تيريزا فون غيلينشترال الملاكَ الطاهر الذي اطمأن إليه البارون أرتور بعد الخيانة المقرفة التي تعرض لها في باريس. وهي كانت السبب في التغير الملحوظ في حياته من حياة المجون إلى العمل الشريف والسعي إلى طلب العلم، فقد أعانته على ذلك التغيير الكبير في حياته ولولاها لما نجح في أموره.

لما رجع البارون أرتور من باريس إلى فينّا عزل نفسه عن الجميع، وأخذ في عزلته يتمنى عملاً محترماً، ويسُبّ هذه الحياة والمقيمين فيها، ويشعر بالحنين إلى الغانيات في باريس، ومن يدري ما كانت ستؤول إليه عزلة البارون لولا أنه أصبح منذ انتقاله إلى فينّا زبوناً دائماً لمنزل بارونات غيلينشترال؛ فقد كان منزل آل غيلينشترال

في تلك الأثناء يرحب بالجميع. في الواقع لم يكن آل غيلينشترال يقدمون الدعوات إلى الناس ليقوموا بزيارتهم، بل كان كل من أحب زيارة أحد منازل النبلاء فيتقدم إلى الزيارة آل غيلينشترال دون دعوة مسبقة مادامت البوابات مفتوحة.

ولكن منزل بارونات آل غيلينشترال أصبح في الأعوام الأخيرة كشخصٍ ورعٍ قد زهد في الدنيا، ثم شعر فجأة باقتراب أجله، فأقبل بكل جوارحه على المرح والاحتفال بمجون ليستمتع بآخر أيامه مثل باقي الناس.

وبعد أن أفلست الحياةُ الماجنةُ آلَ غيلينشترال، فقد أصبحوا يتخبطون بحثاً عن مخرجٍ وخلاص، فلم يجدوا؛ فشعروا باليأس ودنوِّ ساعتهم ولم يبالوا بأيّ شيء، ولم يولوا انتباههم لشأن، ونسوا كل أمر إلا اقتراب نهايتهم الفظيعة، فنجحوا بفضل انشغالهم بالخمور والحب والأحلام الوردية في التغلب على خوفهم من اقتراب هذه النهاية، ولا يزال آل غيلينشترال يأملون في النجاة. كانت تيريزا هي أملهم الوحيد في النجاة فأمكنها الزواج بأحد النبلاء الأغنياء لتعين أسرتها على تخطي هذه الأزمة، لكن هذا كان بعيد المنال لأن تيريزا لم تكن على وفاقٍ مع والدها، وأقسمت إنّها عند زواجها بأحد الأثرياء فلن تقدم أيّ مساعدة إلى عائلتها ولا قرشاً واحداً.

شعر آل غيلينشترال باليأس الشديد، وباتوا يلهون ويقضون على ما تبقى من ثروتهم، ودونَ حذر، بل بإسراف شديد، وزخمٍ كبيرٍ وفخر، وكأنهم لم يتنعموا بشيء من قبل، فكانت البوابة تفتح

على مصراعيها، فتتدفّق جموعٌ من أنصاف الجوعى الباحثين عن الفتات، وكان من ضمن الجموع بعض الأرستقراطيين المعدمين والمؤلفين والموسيقيين والفنانين، يحضرون بثيابهم الفخمة، وجوههم الفاتنة، فتفوح منهم العطور الراقية، وآلاتهم الزاهية، وبطونهم الجائعة. فاستحوذ جمهور الجوعى على بيت آل غيلينشترال، فأصبح البارونات المعدمون السّاعون إلى الخلاص رعاةً للفنون، وغدا المنزل يزهو بأبهى حلله من لوحات ورسومات نادرة نفيسة، وكانت المنطقة ترقص على أنغام السمفونيات والنغمات الحانية من الفالس والبوكا، وذاع صيت هذه الأمسيات الأدبية الموسيقية التي كانت تقام في منزل غيلينشترال، مما جذب العديد من الناس من مختلف الفئات...

كانت تيريزا الحسناء التي يظنُّه المرء أنها منحوتة جميلة من المرمر تحضر هذه الحفلات، تختال بين الحضور بثوبها الأسود وتتنقل من فنانٍ إلى آخر، وتبذل جهداً كبيراً في التغلب على الملل. لم تكن تيريزا تعرف أحداً من الحاضرين فمعظمهم جدد، لذا فقد أثاروا اهتمامها، وأخذت من شدة السأم تقوم بدراستهم، تتأمل في الوجوه الفاتنة تتحدث وتستمع إليهم وتقرأ المخطوطات. وبعد دراستها للزوار خرجت تيريزا بنتيجة واحدة، هي أنّ بين الزوار أناساً شرفاء، ولكنْ بينهم أيضاً منافقون، وهذه هي حصيلتها الوحيدة من هذه الدراسة. وبما أنها تفتقر إلى الخبرة التحليلية، فلم تكن قادرة على التمييز بينهم، فأقامت صداقات مع العديد منهم، بعضهم كان من شخصيات المجتمع المرموقة وبعضهم من المنافقين، وكان البارون أرتور فون زاينتش على رأس الصفوة المنتقاة.

كان حضور البارون أرتور إلى منزل آل غيلينشترال أوّلَ مرة هو محض مصادفة، فقد دعاه أحد أصدقائه الكتاب إلى حضور أمسية مسرحية كان يعرضها في منزل البارونات. لكن بعد فترة قصيرة لم يكتفِ البارون بحضور الأمسيات والعروض الأدبية، بل أصبح يتردد على منزل آل غيلينشترال نهاراً، وأصبحت تيريزا تقوم بنزهاتها المسائية على ظهر جوادها بصحبة البارون أرتور بدلاً من خادمها الخاص. فكان البارون يتوق إلى رؤيتها في كلِّ مساءٍ ليخبرها كيف قضى نهاره، وما الكتب التي قام بقراءتها، وما هي كتاباته... ويخبرها أيضاً بعد كلِّ هذا بآماله وأحلامه للمستقبل. وتيريزا تنصت إليه وتشاركه في الحديث عن علماء مشهورين عرفتهم من قصص البارون، فتوطدت علاقة الصداقة بينهما، وكما في المثل:

(تفصل الصداقة عن الحبّ خطوة واحدة).

لم يخطر ببال البارون الحبُّ قطُّ، فقد اكتفى بصداقة امرأة فتية تتمتع بالذكاء، ولم يكن يتحدث بالغرام حتى قامت تيريزا بالاعتراف بحبها له في إحدى النزهات المسائية..

كانت هي أول من بدأ بأحاديث الحب والغرام، وبعد اعتراف تيريزا للبارون بحبها فإنهما قضيا معاً الأيام التالية بسعادة لا يلقاها المرءُ إلا مرة في العمر، فلم يشعر البارون أرتور بهذه السعادة والرضا من قبل كما شعر بهما في الوقت الذي قضاه مع تيريزا. لكن سعادته هذه لم تطل كثيراً، وكانت تيريزا هي من قضى عليها، فعندما عرض البارون على محبوبته الزواج لتكون البارونة و حرم الدكتور فون زاينيتش، فإنها رفضت عرضه بشكلٍ قاطع، وكتبت في رسالة له:

(لا يمكنني الزواج بك فأنت مفلس وأنا مفلسة، ولقد عانيت من الفقر النصفَ الأول من حياتي، ولا أريد أن أعاني منه في النصف الآخر من حياتي! أنت رجل ولا يدرك الرجال مدى فظاعة الفقر كما تدركها النساء، فالمرأة حين تكون فقيرة فهي من أشقى المخلوقات، لم يكن لك الحديث بالزواج.. فحديثك هذا يؤثر تأثيراً سلبياً في علاقتنا الحالية. فلننس ما حدث ولنكمل حياتنا وعلاقتنا كما في السابق).

قطع البارون أرتور رسالتها إلى قطعٍ صغيرة، ورد عليها برسالة قاسية نزلت كصاعقة من السماء على رأس تيريزا، سخط أرتور سخطاً شديداً وكتب لملاكه الطاهر رسالة مطوَّلة سبّ فيها روح العصر والتربية...

أما رسائل تيريزا التي أرسلتها إليه فيما بعد، لتبرّر رفضَها عرضَ الزواج، فكان مصيرها إلى الحرق في الموقد، وزاد كره البارون لها حتى إنه تخلص من كل ذكرى لها، فهي لا قيمة لها بالنسبة إليه، وكَرِهَ كلَّ قويّ ونبيلٍ وعظيم، واتجه إلى كل من هو حقير وضعيف وفقير...

كل هذه الذكريات مرّت في ذهن أرتور وهو في طريقه لتناول العشاء.. تلك الرسالة عن روح العصر باتت مضحكة الآن، لكنه تذكر ذلك الحقد القديم، فلم يتمكن من نسيانه بعد.

في يوم الخميس، يوم ميلاد البارون، تذكر البارون أرتور أنه قد وعد الكونتيسة تيريزا بأن يتناولا العشاء معاً، فسار متجهاً إلى ساحة التيس البرونزي – وهي ساحة صغيرة تقع في وسط الأدغال زارها الملك يوماً واصطاد فيها تيساً يملك صوفاً برونزياً، ويقال

أيضاً إنه كان في هذه الساحة تمثال صيدٍ على هيئة تيسٍ صُبغ باللون البرونزي، ويرمز إلى أرتيميس أو ديانا إحدى الآلهة الرومانية -إلهة الصيد والقمر والخصوبة- ويقال أيضاً إن الملك الذي أمر بنصب تمثال التيس البرونزي كان معروفاً بالعفاف، ويكره النُّصُب الكلاسيكية التي تقام للنساء.

وصل البارون أرتور إلى الساحة فوجد الكونتيسة تيريزا في انتظاره، تسير بأناةٍ وتلوّح بسوطها وتقطع الأزهار، وجوادها مقيد بإحدى الأشجار يأكل الأعشاب ببلادة، فقالت تيريزا وهي تقترب من البارون أرتور:

- أهكذا تستقبل أصدقاءك! يا لك من مضيف! تتمشى على مهلك متجاهلاً الضيفة التي تنتظرك منذ أكثر من نصف ساعة...

فردّ البارون مبرراً:

- ذهبت لشراء بعض النبيذ، تفضلي بالجلوس! فهذه ليست المرة الأولى التي نجلس فيها معاً على العشب، كما في السابق، أتذكرين؟

جلسا معاً على الأرض يسترجعان ذكريات الماضي.. تذكرا الماضي متجاهلين ما كان بينهما من حبٍّ ثم خصام... تذكرا الحياة في فينّا، ومنزل غيلينشترال، والأمسيات ونزهاتهما المسائية معاً.... كان البارون يستعيد الذكريات ويحتسي الخمر، إلّا أنّ الكونيسة رفضت الشراب، احتسى البارون قنينة كاملة من الخمر حتى ثمل قليلاً، وصار يضحك ويمزح ويتكلم بفظاظة، وتساءل:

- ما نوع الطعام الذي تأكلينه هذه الأيام؟

- ممم... ماذا آكل؟ أليس معروفاً.. آل غولداغوين ليسوا معدومين..

- إذن فأنت تشاركين الكونت في مائدته وطعامه وشرابه؟

- لِمَ تسأل عن هذه الأمور؟

- أجيبي عن أسئلتي أوّلاً، أتشاركين الكونت مائدته؟

- أجل أفعل..

- أليس هذا غريباً بعض الشيء؟ تكرهين الكونت وتتشاركين معه في الطعام والشراب! هئ - هئ - هئ، واعجباه! يا إلهي ما هذه القوانين؟ إن أصحابكِ من آل غولداغوين يرونني منافقاً، فما هو رأيهم فيكِ؟ هئ - هئ -هئ.

ردّت الكونتيسة بجدية وقد تغيّر وجهها:

- كفاك شرباً أيها البارون! فأنت تكون وقحاً قاسياً عندما تثمل، أنت تعلم أنني مجبرة بسبب الظروف على العيش في منزل غولداغوين!

- وما هي الظروف التي تجبرك على ذلك؟ تخافين من انتشار الأقاويل؟ هذه حجّةٌ قديمة! أخبريني حقاً يا كونتيسة، كم سيدفع لك الكونت سنوياً بعد طلاقه منك؟

- لن يدفع شيئاً...

- لماذا تكذبين؟ لا تشعري بالاستياء مني... فأنا صديقك، لا تضربي بسوطك هكذا، فليس هو المذنب، أووه! ثم هبّ واقفاً وضرب جبهته بكفّ يده:

- لحظة... كيف لم ألحظ هذا؟

- ماذا هناك؟

أخذ البارون ينقل بصره بسرعة بين وجه الكونتيسة وسوطها ويدور بعصبية ثم تمتم:

- لِمَ لَمْ ألحظ هذا من قبل؟ أنت التي استضفت العجوز السمين وصغيرتي فتاة الخزامى؟

اتسعت عينا الكونتيسة وهزت كتفيها:

- فتاة الخزامى.. السمين.. ما الذي تقوله يا فون زاينيتش؟ لقد بدأت تهذي، كفاك شرباً!

- بل أنت كفاك ضرباً، يا صاحبة السعادة!

امتقع وجه البارون ثم ضرب صدره بقبضته القوية..

- كفاك ضرباً، فلتذهبي إلى الجحيم أنت وعادات مجتمعك الارستقراطي! أتسمعينني؟

نهضت الكونتيسة واتسعت عيناها وهي تشتعل غضباً:

- لقد تماديت أيها البارون! هلا استعدت شيطانك؟ فأنا لا أفهم شيئاً مما تقول!

- لن أفعل! إلى الجحيم! أتودّين إنكار فعلتك الخسيسة؟

ازدادت حدقتا الكونتيسة اتساعاً، فهي لا تفهمه.

- أية فعلة؟ وما الذي أودّ إنكاره؟ لا أفهم شيئاً يا بارون!

- من قام بجلد عازف الكمنجة العجوز بسوطك هذا على وجهه في باحة بيت الكونت غولداغوين؟ ثم أوقعه تحت حوافر جوادك هذا؟ لقد أخبراني بأن الكونتيسة غولداغوين هي مَنْ فعلت هذا، وليس هناك إلّا أنتِ مَن اسمها كونتيسة غوالداغوين!

توهج وجه الكونتيسة احمراراً من جبهتها حتى ياقة الدانتيل، أحست بالارتباك ثم سعلت وقالت:

- لا أفهم شيئاً، مَنْ عازف الكمنجة؟ إنك تهذي بأشياءٍ غير مفهومة، عد إلى وعيك أيها البارون!

- يكفي! لماذا تكذبين؟ لقد كُنتِ جيدة بالكذب سابقاً، ولكن لم تكذبي في أشياء تافهة كهذه! لماذا ضربتِه؟

- ضربتُ مَنْ؟

كان صوتها يرتعد خوفاً، وكانت عيناها ترقصان قلقاً كفأرين في مصيدة، كان الخجل ظاهراً عليها بوضوح. اضطجع البارون على جنبه وتمدد على العشب مرّة ثانيةً، يستمتع بالتحديق إلى عينيها الجميلتين، ويضحك سخريةً وحقداً وهو ثمل، ثم سألها بشفتين ترتجفان:

- لم قمتِ بضربه؟ أرأيت ابنته وهي تبكي بشدة؟

- بِنْتُ مَنْ التي كانت تبكي؟ فسّر كلامك أيها البارون؟

- وكيف سترينها؟ فأنت يمكنك استخدام يديك البيضاء ولسانك السليط، ولا يمكنك أن تلاحظي الدموع! لابد أنها لا تزال تبكي حتى الآن.. فتاتي الحسناء الشقراء لا زالت تبكي.. حزينة، لا حول لها، لا يمكنها الثأر لوالدها من الكونتيسة، لقد رافقتُهُما ثلاثَ ساعات، وطوال الثلاث ساعات كانت تضع يدها على عينيها باكية... يا لها من فتاة بائسة! لا تزال صورة وجهها الراقي الباكي محفورة في ذاكرتي، أووه أيها الطغاة القساة أنتم لم تُضربوا يوماً ولم تتعرضوا للإهانة قطُّ!

- اشرح لي أيها البارون! ضربتُ من؟

- أووه حسناً! أتظنين أني أجهل تعابير وجهك، مَن القطة التي التهمت الفأر؟ يا للعار!

هبّ البارون واقفاً ثم مدّ يده طلباً للسوط:

- ناوليني! فناولتْه الكونتيسة سوطها باستسلام. ثم قال وهو يلفّ السوط كحلزون: - يا للعار! ثم قطعه ثلاثَ قطع ورماه أرضاً.

كانت الكونتيسة في غاية الخجل، لم تكن تعرف كيف ترد على اتهامات البارون لها؛ تقف ويتملكها الارتباك، فهذه أول مرة تسمع كلاماً وقحاً، فاحمرّ خجلاً ولم تدرِ أين تخبّئ وجهها ويديها من نظرات البارون التي تحاكمها. وفجأة حدث شيء أخرجها من هذا الموقف المخجل، فعندما كان البارون أرتور يكسر سوطها فقد سمعا خلف الأشجار خطوات تقترب، وما لبث أن ظهر، من خلف الأشجار أمامَ الكونتيسة، العجوزُ فريتز وفريتزُ الشابّ، وقطعا الساحة وهما يحدقان بأرتور والكونتيسة. سار فريتز الشاب

في الأمام حاملاً عصا صيدٍ طويلة، وفريتز العجوز يمشي خلفه ببطء، وهو يحرك قدميه بصعوبة ويحمل بيده اليمنى سمكةَ كراكي مربوطة بحبل. اقتربت الكونتيسة من فريتز تسأله:

- لماذا لا تلبس القفازات يا سيد فريتز؟

نظر الشاب إلى الكونتيسة بطرف عينه وأخذ يحرك شفتيه:

- و أين العصا؟ لماذا لا تحملينها معك؟

تغير وجه فريتز الشاب وسار بسرعة نحو الأشجار، ثم التفت مرة واحدة واختفى بين الأشجار، وسار العجوز فريتز يجرّ نفسه خلف ابنه بصمت، دون أن يلتفت إلى أحد. فقال البارون بعد أن اختفى الرجلان بين الأشجار:

- معذرةً، أنا لا أتعمد إذلالك... ولكني أقسم بشرفي، لو كنتِ رجلاً، لانتقمت منكِ لعازف الكمنجة وابنته.. يا للعار يا كونتيسة! لقد شعرت أنا بالخجل أمامهما!

نهض البارون أرتور ثم ارتدى قبعته:

- لا يمكنكِ إيجاد الأعذار لتبرير تصرفك... وهذا جميل! فما من داعٍ إلى الكذب؟ فالأعذار تعدّ كذباً.

قالت الكونتيسة:

- ما زلت لا أفهم عمّن تتكلم؟

- حقاً؟

- أجل... حقاً..

- ممم... إلى اللقاء! عيناكِ الجميلتان تفضحان كذبك! أشكر الله أنّ وجهك لا يزال يحمرّ خجلاً عندما تكذبين.

انتصب البارون وأشار برأسه ثم مشى عبر الساحة متجهاً إلى الطريق الضيقة التي تمر خلال الغابة.

ملأت التجعدات جبين الكونتيسة. كانت تشعر بالألم والحزن وتبحث عن الكلمات المناسبة فلا تجدها... أرادت بقوة أن تقدم أعذاراً إلى البارون لتبرير فعلتها القاسية التي تخجل من الاعتراف بها. وعندما كانت غارقة في التفكير تعض على شفتيها المتوردتين وتطقطق أصابعها، كان البارون قد دخل إلى الممرّ بين الأشجار، فصاحت الكونتيسة:

- تمهل أيها البارون!

لم يجبها البارون واستمر بالسير مبتعداً، وصاحت وهي تسمع خطواته تبتعد:

- يا بارون! قالتها بصوت يرتجف من الخوف، كانت تخاف من ألّا يعود أبداً، ثم غاب صوت خطوات البارون في الغابة.

ثبتت الكونتيسة في مكانها لحظة ثم رمت نفسها على الأرض وهي حائرة تفكر، وكان مرميّاً إلى جانبها قارورتا نبيذٍ فارغتان، وقارورة أخرى وُضِعت مائلة لا يزال فيها بعض النبيذ، فاحتست الكونتيسة ما بقي من النبيذ، ثم قامت ومشت نحو جوادها.

لمّا كانت الكونتيسة خارجة من الساحة، رأت على بعد بضع خطوات منها، فارساً يمتطي حصاناً، وما أن رأى الحصان

الكونتيسة حتى بدأ بالصهيل مرحاً، كان على ظهره رجل يبلغ من العمر الخامسة والأربعين، طويل القامة نحيل الجسم، شاحب الوجه له لحية خفيفة.

- توقفي!

همس الفارس بصوتٍ ضعيف، كان صوته، الذي بدا أنه لا يشبه صوتَ الرجال، يشير إلى أنه منبعث من صدرٍ عليل.

- توقفي لحظةً! أودّ أن أقولك لك كلمتين! اثنتين فقط!

ردت الكونتيسة دون النظر إليه:

- أكنتَ تتلصّص عليّ؟ وتتجسّس؟

- أنا أحبك حقاً! وليس بمقدوري العيش دقيقة واحدة دونك. كلمتان فحسب!

5

نظرت الكونتيسة إلى الفارس -هو كان زوجها الكونت غولداغوين-، فأبطأت في المسير ثم قالت:

- لقد منعك الطبيب من العَدْو بسرعة، أبطِئ قليلاً... ما الذي تريده؟

- كلمتان فحسب!

- هاه؟

- مَن كان الرجل؟

- البارون أرتور فون زاينيتش.

- أرتور فون زاينيتش؟ إنه هو؟ إذن فون زاينيتش؟ هو مَن كنتِ تحبينه فيما مضى؟

- ربما.. أجل، ماذا أيضاً؟

- ممم... لا يزال يتمتع بالوسامة.. لماذا سمحتِ له بالصراخ عليك؟ بأيّ حقّ؟

صمت وهلة وسعل، ثم قال:

- هل تظنين أنّ بإمكانك العودة إلى حبه مجدداً؟ فغالباً ما يعود الحبّ القديم.

فقالت الكونتيسة:

- ناولني السوط!

تناولت السوط من الكونت وشدت لجام جوادها بقوةٍ وسارت في الممر مسرعةً، وشد الكونت مِن ثَمَّ لجام جواده بقوة، فعدا الجواد بسرعة وصار الكونت يترنح فوقه من الضعف، وأصاب الضعف فخذيه، وتغير وجهه من الوجع، فشدّ اللجام وأوقف جواده برهةً ثم تابع السير ببطء، نظر إلى زوجته لحظةً، ثم أنزل رأسه على صدره وغرق في تفكيرٍ عميق.

بعد ثلاثة أيامٍ التقى البارون أرتور بتيريزا قريباً من منزل بلاوكير حارس الحراج، لم تكن ترتدي زيّ الفارسة، بل كانت تتمشى بثوبٍ فلاحيّ بسيطٍ، بدا كأنه خِيطَ حديثاً، لكنه كان أغلى ثمناً من زيّ الفارسة المصنوع من الحرير الأسود، وعوضاً عن الإجاصات المصنوعة من أحجار العقيق الملونة، فكان يزين عنقَها أحجارٌ نفيسة من الفيروز والزمرد والمرجان واللؤلؤ، كما كانت تلبس في كلتا يديها سواراً سميكاً، وكان ثوبها وسترته الهنجاريين مخيطَيْن من أقمشة ثمينة. هتفت الكونتيسة حين رأت البارون:

- لحظة أيها البارون، هل لي بدقيقة؟

ثمّ أردفت حين اقترب منها:

- حديثك السابق ثم مغادرتك، أتذكر؟ لقد سألتني عن شيء، ولم أستوعب ما ترمي إليه إلا بعد تفكير عميق، وأنا أفهم

الآن أنك كنت تقصد عازف الكمنجة العجوز الذي ضربته بسوطي سابقاً! صحيح؟

- حسناً... وما ردّك على ذلك؟

- أنا الآن أعرف عمّن تتحدث.. ولا داعي لتبرير تصرفي لك أيها البارون، ولكن حتى... حتى تحقيق العدالة التي نتمتع بها كلانا.. فقد ضربت ذلك الرجل لسبب ما، وبسببه وقعت عن ظهر جوادي، وكادت ساقي أن تكسر، حتى إنه الرجل... قام بالضحك علي.

ألقى البارون نظرةً على وجه الكونتيسة ثم قال ضاحكاً:

- كفاك كذباً، يا صاحبة السعادة! لماذا علينا أن يحدث بعضُنا بعضاً بالأكاذيب؟ لست محتاجاً إلى تقديم الأعذار... ما الغاية من ذلك؟ فأنا أولَ مرة أرى هاتين الساقين الجميلتين، وهذا كافٍ بالنسبة إليّ... فهما أقوى من جميع الانتقادات! هيا للتنزه، أرجوك سامحيني على وقاحتي عند ساحة التيس البرونزي، لقد كنت ثملاً....

مشى البارون أرتور برفقة تيريزا طويلاً، وتبادلا الحديث بأشياء عادية، مَزَحا وضَحِكا كثيراً.. ولم يتطرقا إلى الحديث بأمر الشيخ البدين وابنته، ولا الأذكياء والمنافق، ولم يقم البارون بتوجيه أية إهانة لتيريزا... بل كان يتحدث بلطفٍ كما كان يفعل في السابق في فينّا ومنزل غيلينشترال. كانت العتمة قد أسدلت ستارها عندما قام البارون بإيصال الكونتيسة إلى عربتها التي كانت تخفيها بالقرب من بيت بلاوكير، فسألته تيريزا وهي تركب عربتها:

- أتعلمني الرماية؟

- كما تشائين..

- أرجوك أيها البارون، فأنا أشعر بالملل، فهلا تلطفت وخففت عني هذا الملل ولو قليلاً... حقاً.. فلتساعدني على ذلك. ثم شدت على يده وذهبت. ثم تقابلا مجدداً بعد أربعة أيام، وبعد ذلك بنصف شهر، أصبحا يتقابلان بشكلٍ يومي. علمها البارون الرماية، فكانت تذهب للصيد في كل مساء، بل في بعض الأحيان كانت تذهب في الصباح أيضاً، لم تكن العلاقة بينهما واضحة، كان البارون لطيفاً جداً مع تيريزا عندما لا يكون ثملاً... فيتكلم بصوتٍ حانٍ، ويتجنب الكلمات القاسية، ويبتسم بلطف، ويمد يده الضخمة لمساعدتها بأدب، ويتحدث مثل سيد نبيل مهذب يرافق سيدة وليس كإنسانٍ بربري، أما حين يثمل فإنه يحدثها بأمورٍ قاسية... يهزأ بها ويدعوها إلى الذهاب إلى الجحيم ويخبرها بمدى كرهه واحتقاره لها. قالت له ذات مرة: - أنا أسامحك أيها البارون لأنك ثمل فحسب، فلا يجوز محاسبة المجانين والسكارى، فأجابها البارون ضاحكاً:

- أووه.. حسناً إذن! فلتعلمي أنني دائماً أقول الحقيقة وأنا ثمل. أما عندما أكون صحواً فأنا أتصرف كيهوديٍّ حقير، فلا تصدقي شيئاً مما أقول وأنا بكامل وعيي!

- ألا نلتقي مجدداً..

- ولم لا؟... فلنلتقِ! فكلانا يتملكه الملل... والوقت يمر بسرعة أكبر في أثناء المشاحنات والخصام منه في أثناء السلم، هئ - هئ - هئ، لقد أحسن القدر لنا حين فرّق بيننا بقطة سوداء، وغرس في كلٍ منا عدم احترام الآخر، فأنت لا تحترمينني، لأنك

تظنين أني منافق، وأنا أيضاً لا أحترمك لأني أراك كفتاة حسناء فقط! هئ - هئ!

اشتعلت عينا تيريزا غضباً، وغادرت دون أن تنطق كلمة واحدة. بعد هذه المحادثة لم تقابل أرتور أسبوعاً، وتقابلا في اليوم الثامن فطلب منها مسامحته لفظاظته.

لم تكن قليلة هي المرات التي يثمل فيها أرتور، فكانت تيريزا دائماً ما تفترق عنه مهانة، وتعِدُ نفسها بأنها لن تلتقي به مجدداً، لكن....

أدبر الصيف وأقبل الخريف. تبعثرت أوراق الشجر الصفراء التي عاشت حياتها القصيرة على الأرض النديّة الباردة.. وانهمر المطر، إن الطين في فصل الخريف لا يشبه الطين في فصل الصيف: فهو يبقى رطباً، ولا يجف في ساعات، بل يحتاج إلى أيامٍ بل أسابيع... وهبت رياح الشتاء، واشتدّ ظلام الغابات لسوء الطقس، فلم يعد يرغب أحدٌ في الجلوس تحت ظلالها.

لبس البارون فون زاينيتش معطفاً من الصوف الغليظ مبطّناً بالقطن بدلاً من السترة المصنوعة من جلد الماعز، وغطى الوحل حذاءه اللامع، وتوشح وجهه الشاحب بحمرة بسبب الرياح الباردة، أما العلاقة التي تربطه بتيريزا فلم تتضح معالمها. لم يكونا قد اكتفيا من الحديث بعدُ، فكانت تيريزا ما زالت تملك الكثير من الأحاديث، فتابعت زياراتها إلى الغابة كما في السابق.

كان عليهما الهرب من البرد والرطوبة والوحل.. فوجدا الملجأ المناسب، حيث اتخذا من الكنيسة الصغيرة المغطاة بالطحالب،

وهي المبنيّة في بستان غولداغوين، ملاذاً يلتقيا فيه. كانت اللوحة غير المكتملة لعيني القديس فرانتسيسك المرعبتين تشهد على لقاء أرتور وتيريزا في كل مساءٍ خريفي، حيث كانا يجلسان على الكرسي العفن تحت ضوء مصباحٍ خافت ويتبادلان الحديث. كان البارون يحضر غالباً ثملاً وما أن يجلس حتى يبدأ بالتثاؤب والتحدث بوقاحة، وتجلس هي إلى جانبه ووجهها أصفر كالمرمر، رافعة رأسها، تسمعه بصبرٍ، فقد اعتادت على طول لسانه، فتردّ عليه بوقاحة أيضاً. أما حين يكون بوعيه فكانت العناكب القابعة في زوايا الكنيسة تنصت بمتعة إلى حديثه عن الماضي، عن سعادته التي لم يمضِ عليها زمنٌ طويل، وتنظر إلى امرأة تملؤها السعادة. أحب أرتور الحديث بحكايا الماضي كالعجائز، فكانت نبرة صوته كالشيوخ، لم يتمنَّ عودة الماضي، بل كان يقتنع فقط بالذكريات. أما تيريزا فقد كانت تتمنى عودة ذلك الماضي، وكانت نبرة صوتها تنمّ بالأمل، فهي ما تزال تحب البارون أرتور حباً شديداً...

وفي أحد أسوأ أيام الخريف طقساً، توجه البارون أرتور إلى منزل بلاوكير ينتظر توقف الأمطار، فناولته مبتسمةً مدام بلاوكير ظرفاً. فتح البارون ظرفه وصار يضحك كولدٍ صغيرٍ فرحٍ بلعبته الجديدة، فقد كان الظرف يحوي صورة وقصاصة من الورق، وكلاهما من إيلغا. حدق البارون إلى الصورة وفتح عينيه دهشةً، كانت صورة إيلغا، لكنها لم تكن إيلغا التي عرفها منذ شهور قليلة، قطعاً لا، فلم يكن شيء في الصورة يشبهها أو يشبه ثوبها المتهالك الذي بللته يوماً بدموع القهر والإهانة، ولم تظهر أيضاً تلك الشبرة المخملية البسيطة التي كانت تربط بها شعرَها الأشقر. كان البارون

ينظر إلى صورة فتاة راقية بفستانها المعاصر النفيس، وصففت شعرها الأشقر يد ماهرة، وكانت تضع على رأسها قبعة من القش مزينة بالزهور، يبدو من الصورة أنها غالية الثمن، وقد رسمت على شفتيها الجميلتين ابتسامة تنمّ بالفخر والتكبر، لكن مصطنعة.

- يا لك من حمقاء!

قال ذلك أرتور وهو يضحك وقبّل صورتها،

- أنت حقاً حمقاء! تظهرين كغراب بزيّ طاووس، لبست فستاناً غالي الثمن وتظنين أنك قد انتصرت! استمري بلبسه وسنرى حينئذ إن كنت ستغنين أغنية النصر!

كانت قصاصة الورق رسالة كتبتها إيلغا بخط يدها الذي يعرفه البارون جيداً، جاء فيها:

(عزيزي البارون أرتور! أبعث إليك بصورتي لأعلمك أنني ووالدي تسفيبوبيتش بخير وعافية. أخبرك أيضاً بأنني سأحظى بالمليون، بل سأحظى به قريباً جداً، سأقص عليك ما مررنا به عندما نتقابل، أنت على الأغلب قد نسيت أمري، وأنا في رسالتي هذه أذكرك بنفسي وبوعدك لي، فأنا أحبك كثيراً، إنني أقابل العديد من البارونات والكونتات لكنك أفضلهم على الإطلاق، أبي يرسل بتحياته إليك.

راسلني على هذا العنوان (ثم كتبت عنوانها الطويل)

أرسلْ إليّ جوابك، هل هناك أمل أم لا؟

المخلصة لك: إيـ.)

سأل البارون مدام بلاوكير أن تعطيه ورقة وهو يبتسم ويحدق إلى صورة إيلغا، ثم كتب على الورقة:

(تحياتي يا إيلغا، أشكرك، أنا في انتظارك بصحبة المليون، لا تقومي بأية حماقة وكوني فطنة وبخير، أبعث سلامي إلى عجوزك السمين الذي تعرض للضرب مئة مرة! أعطيه بعضاً من المليون قطعتين أو أكثر من القطع الذهبية لشراء بعض النبيذ.

خطيبك- البارون أرتور فون زاينيتش)

ثم ناول مدام بلاوكير الورقة لتقوم بإرسالها إلى البريد، وجلس منهمكاً في محاولة رسم زهرة خزامى كبيرة حول صورة إيلغا. كان قلمه مبرياً من طرفيه، طرف أحمر والآخر أزرق، لكن لم يفلح كلا اللونين في الرسم على سطح الصورة اللامع، فلم يتمكن البارون أرتور من وضع وجه إيلغا داخلَ زهرة خزامى، على الرغم من محاولاته المتعددة وعندئذ هبط الظلام....

6

أما بالنسبة إلى إيلغا ووالدها فقد حدث لهما أمر غريب..
فبعد مرور أسبوع على لقائهما البارون فون زاينيتش، فإنهما جلسا في ظهيرة يومٍ شديد الحرارة يستظلان تحت مظلةٍ في إحدى محطّات سكك الحديد. وعلى الرغم من شدة الحرارة والطقس الخانق، فكانت المحطة تعجُّ بالناس. كان رصيف المحطة ممتلئاً بالرجال والنساء الذين يصطفون، بالإضافة إلى الملاّك وركاب القطار الواقفين على الخط الجانبي والذين يقطعون الرصيف ذهاباً وإياباً. كان يقف على الخط الحديدي الجانبي قطار عسكري، ومن المعروف أن القطار العسكري يقف في المحطة ساعتين أو ثلاث ساعات.. كانت قاعة الدرجة الأولى قد امتلأت بالضباط الذين يحتسون النبيذ، وكانت قاعة الدرجة الثالثة تعجُّ بنغمات الموسيقى العسكرية، وهو ما اجتذب هذا الحضور الضخم.

جلس تسفيبوبيتش وابنته إيلغا على ذراع قبّان ضخم ليستريحا وليشاهدا هذا الجمع الغفير، فكان تسفيبوبيتش ينظر إلى الضباط وهم يشربون الخمر، وكانت إيلغا تعاين أزياء النساء، وقريباً منهما كان يمرّ بعض الجنود الثَّمِلين وهم يرمقون إيلغا

بنظراتهم، فقد أعجبتهم هذه الفتاة الجميلة.. في البداية كان صغار الجنود يحومون بإعجابٍ حولها، لكن بعد تناول عدة جرعات من الخَمْر صار كبار الضباط يحومون حولها أيضاً.. وقبل موعد انطلاق القطار بنصف ساعة تجمع صغار الضباط وكبارهم يتمتمون وينظرون إلى إيلغا نظراتٍ ثملة.

فقال تسفيبوبيتش:

- أظن أنهم يشيرون إليك يا إيلغا، فلنعزف لهم شيئاً، سيدفعون لنا النقود يقيناً، أخيراً سكتت تلك الموسيقى الفظيعة في الوقت المناسب.

قام تسفيبوبيتش وإيلغا فوراً وهيّآ آلتيهما وشرعا في العزف، وبدأت إيلغا بالغناء، ففرح الضباط بغنائها... فأخذت تغني:

إن جنود النمسا هم أشجع جنود في العالم وأجملهم بإمكانهم احتلال العالم في دقائق...

فصار الجنود يتهامسون:

- جميل! لا مثيل لها! اصمت أيها العجوز! فأنت تزعجنا بصوتك الذي يشبه صوت التيس! حقاً لا مثيل لها!

ثم هتف ضابط بشاربين ضخمين يغطيهما الشيب وضرب على صدره:

- يا لها من فكرة! أقسم بشرفي إنها فكرة رائعة!

ثم صرف وجهه ناحية زملائه وأخذ يتمتم بشيء ما... وراح زملاؤه يؤيدون ما يقول ويهزون رؤوسهم، ثم اتجه الضابطُ ذو

الشاربين الأبيضين إلى إيلغا وهو يترنح بعد أن ضمن قبول زملائه، وأمسك بيدها المصليّة من الشمس وقال:

- اسمعي يا جميلة! نرغب في أن ترافقينا في القطار... لتغني وتعزفي لنا في الطريق، وسندفع لك نقوداً كثيرة، ما رأيك؟

ولم ينتظر جوابها، بل أمسك بيدها وشدّها نحو زملائه، فراح الجنود الثَّمِلونَ يصيحون:

- أجل، أجل... سندفع الكثير من المال... أجل..

سألت إيلغا:

- وإلى أين تتجهون؟

- إلى البوسنة على ما أظن... لكننا لسنا متيقّنين من ذلك...

ابتسم تسفيبوبيتش وقال:

- غير معقول!

لكن الجنود تجاهلوا تسفيبوبيتش.. وأخذوا إيلغا جانباً وهي تبتسم، وأخذوا يصرّحون برغباتهم ويؤكدون لها كلامهم... حتى إن أحدهم قد أمسك بذقنها...

كان تسفيبوبيتش يقف جانباً ويبتسم، وكله ثقة بأن إيلغا لن توافق على هذا العرض. من غير شك فلن توافق! فدوماً ما كانت ترفض مثل هذه العروض، فهي عفيفة! لكنْ تملكه القلق والعجب عندما شاهد إيلغا تصعد إلى مقصورة الدرجة الأولى في القطار، وقد علت ضحكاتها، فركبت المقصورة ثم أشارت إلى والدها برأسها... فأسرع تسفيبوبيتش إليها... فقالت له:

- سأذهب معهم يا أبي! هيا اجلس...

قال تسفيبوبيتش وقد تغير وجهه وتردد في ركوب المقصورة الفخمة:

- هل جُنِنْتِ؟

فصرخ الجنود في تسفيبوبيتش:

- اركب!

انحنى تسفيبوبيتش ثم ركب المقصورة وقد ظهر القلق عليه، وأخذ يحاول إقناع إيلغا بتغيير رأيها، غير أن إيلغا كانت عنيدة جداً، ثم همست له:

- أودّ جني المليون، وإلاّ فسأموت.

- لن تنالي المليون، هل جننتِ، بل ستخسرين عفّتك! ستخسرين عفّتك! هذه خلاعة!

- لا تقلق يا أبي تسفيبوبيتش، لن ينال الرجال مني شيئاً غير الغناء والموسيقى... لقد اتخذت قراري.

بدأ القطار بالمغادرة، ووالدها يحاول إقناعها ويرجوها أن تعدل عن رأيها، فبكى مرة في محاولةٍ لإقناعها، فقالت له:

- أنت مملّ يا والدي.

ثم تركته ومشت إلى حيث الجنود.

جلس الوالد الحزين شاحباً متعرقاً وحيداً في إحدى زوايا المقصورة البعيدة، وأغلق عينيه وأخذ يصلي ويدعو الله، وأصابعه

ترتعش. لم تكن إيلغا هذه المبتهجة التي تنصت لقصص الجنود المتهنة، هي نفسها ابنته إيلغا البريئة اللطيفة، التي غالباً ما تبكي، لم يصدق ما يرى ويسمع.. يا للنساء الحمقاوات، إنهن غامضات ويصعب فهمهنّ!

خصص الجنود غرفة خاصة لإيلغا، وقدموا الفطور الفاخر لها ولوالدها، لكنهما لم يأكلا منه شيئاً، وعند وصول القطار إلى أقرب مدينة توقف القطار ساعتين، فذهب أحد الجنود إلى المحلات وابتاع فستاناً جديداً وسِواراً وحذاء وقدّمهنّ إلى إيلغا...

وهتف أحد الجنود عندما خرجت إيلغا إليهم بثوبها الجديد:

- في نخب ابنة الفرقة! أوورااا!

احتسى الجنود الخمرة وطلبوا من إيلغا أن تغني، فقامت بالغناء طوال الطريق حتى وصلت الفرقة إلى الحدود...

هذه كانت خطوة إيلغا الأولى نحو حياتها الجديدة التي تتوق إيلغا الحمقاء أن تحصل منها على المليون. كانت خطوتها الأولى ناجحة، فبعد شهر لاذت إيلغا بالفرار من الجنود مع والدها، وكانت تلبَسُ فستاناً دفع الجنود ألفاً وخمسمائة فرنك ثمناً له. ركبت إيلغا في مقصورة الدرجة الأولى مع خمس بنات فتيّات وامرأة عجوز لها أنفٌ كبير مقوّس، ورجل ألماني أصلع سمين، وفي الطريق أعطى الألماني الجميع بطاقات تعريفية مكتوباً عليها يوسف كيلتر، مُوكِّل أوركسترا وفرق هنغارية في مدينة تريستة، وكانت المرأة العجوز هي شريكته.

7

قامت الفتاة المتمردة بالهرب مرة أخرى، ولكنها كانت المرة الأخيرة... فقد كانت ليلة من ليالي نيسان (إبريل) الدافئة.. حيث تجاوز الوقت الساعة الثانية عشرة منذ وقت طويل، لكن العرض مازال مستمراً في المسرح الصيفي لمدام بلانشار. فلا تزال الآنسة توربيه -أستاذة السحر الأسود- تقوم بخدعها على المسرح، حيث أخرجت من حذاء نسائي سرباً من الحمام، ثم أخرجت منه فستاناً كبيراً والجمهور يصفق لها بحرارة.. ووضعت الفستان على الأرض، ثم قامت برفعة ليظهر من تحته غلامٌ صغير يلبس ملابس شيطان ميفستوفل. كانت جميع الخدع قديمة، لكن الزوار يشاهدونها بصفتها شيئاً جانبياً، حيث إن مسرح مدام بلانشار كان يقدم العروض فقط ليحتفظ مطعمها بلقب مسرح. فالناس يزورونه لأجل الأكل والشرب، ونادراً ما يتابعون ما يدور على المسرح، فتقام السُفَرُ بين الأعمدة والحجرات.

ويجلس زوار الصف الأول وهم يديرون ظهورهم للمسرح وينظرون من خلال مناظيرهم إلى الصف الثاني الذي يمتلئ ببائعات الهوى. لم يكن الزوار يجلسون في أماكنهم، بل كانوا

يطوفون ويحومون في المكان.. ويتحركون بشكل مستمر.. ولا يستطيع أحد أن يوقف حركتهم هذه لحظة واحدة، فيتمشون بين صالة العرض وصالة المطعم، وبين صالة المطعم والحديقة...

كان غرض مدام بلانشار من الاحتفاظ بالمسرح هو عرض فناناتها الحديثات. وكان من خطط المسرح أن تقوم هؤلاء الفنانات بالغناء بعد خدع الآنسة توريبه. كان الزوار يجلسون في مقاعدهم ينتظرون بفارغ الصبر، ويتابعون الخدع، ويحيّون الساحرة؛ فلا شيء آخر يفعلوه. كانت مدام بلانشار السمينة تجلس في مقصورتها مبتسمة وتلعب بباقة من الزهور، وتحاول إقناع مجموعة من الزوار المتجمعين حولها بأن الفنانات الحديثات حقاً مثيرات... وكان زوجها السمين يجلس مقابلها وجهاً لوجه، يتصفح صحيفةً مبتسماً، ويهز رأسه تأكيداً لما تقول، ويغمغم:

- آه.. أجل! لقد كلفتنا هذه الفرقة الكثير من الأموال! فتجد الصوت العذب الذي تحب الاستماع له، كما تجد الجمال الذي تحب النظر إليه...

قصد رجلٌ ممتلئ أشيب مدام بلانشار السمينة وسألها:

- يا سيدتي، لماذا خلت عروضكم اليوم من الأناشيد الهنغارية؟

رفعت مدام بلانشار إصبعها في وجه الرجل تهدده بدلال:

- أنا أعلم، يا سيد فيكونت، لِمَ تريد سماع الأغاني الهنغارية؟ إن الفتاة التي تريد رؤيتها تشعر بالمرض اليوم ولا يمكنها أن تغني...

أخرج فيكونت تنهيدة عميقة ثم قال:

- يا لها من مسكينة! وممّ تعاني الآنسة إيلغا؟

هزت مدام بلانشار كتفها وقالت:

- لا أعلم.. ولكن يا لها من فتاة حسناء إيلغا هذه! فلقد سألني عنها مئة شخصٍ هذه الليلة. هي ليست بخير، يا سيد فيكونت! فالمرض لا يرأف بأحد حتى بالجميلات..

فقال شابٌ يلبسُ قميص جوقة الفرسان ويقف معهم:

- إن جميلتنا الهنغارية تعاني من علة سامية جداً! فقد كانت البارحة تحادث المهرج دي أومارين، إنها تشكو من علة الشوق إلى الوطن، آه! ألق نظرة يا فيكونت سيزي! ياه.. ياه.. يا للجمال!

قالها وهو يشير إلى المسرح ليلفت انتباه فيكونت سيزي إلى فرقة الفنانات الحديثات التي تعتلي المسرح. نظر فيكونت إلى المسرح لحظةً، ثم حول نظره إلى مدام بلانشار وتابع حديثه بشأن إيلغا... همس لبلانشار بعد ربع ساعة:

- إنها تمزح! تلك الحمقاء! أتدرين كم تطلب منا مقابل لحظة حب؟ أتدرين؟ مئة ألف فرنك! هئ - هئ - هئ، ومن هو المخبول الذي سيدفع لها هذا المبلغ! فبهذا المبلغ يمكنني امتلاك عشر فتيات مثلها. ممم... فابنة عمك يا مدام كانت تفوقها جمالاً ألف مرة، وقد دفعت لها مئة ألف ولكن خلال ثلاث سنوات! أما هذه الفتاة، فهي مزاجية! أووه مئة ألف..! هل لك يا مدام أن تخبريها بأنّ تصرّفها هذا غبي جداً... يقيناً هي ليست جادة! لا يمكن المزاح في كل الأوقات.

تساءلت بلانشار السمينة مبتسمة، وهي تنظر إلى الشاب:

- وماذا يقول الشاب الوسيم ألْفريد ديزيريه؟

ردّ ديزيريه:

- إن هذه الفتاة تثيرنا، وهي ترغب في بيع نفسها بمبلغٍ كبير.. ستتعب أعصابنا وتجعلنا ندفع ألفي فرنك وليس ألفاً. فهي تدرك جيداً كم يُتعب الانتظار نفوسنا الدنيئة.. أما ما تطلبه وهو مئة ألف فهو يقيناً مزحة ظريفة.

ثم شارك في الحديث رجل رابع ورجل خامس حتى أصبح كل من في المقصورة يتكلم بشأن إيلغا. وكانت المقصورة تضمّ عشرة رجال.

في تلك الأثناء كانت إيلغا في حجرتها الصغيرة، وهي من الحجرات الكثيرة التي شيدت خلف كواليس المسرح. كانت هذه الحجرات تفوح منها رائحة العطور والبودرة ومصابيح الغاز، وكانت تسمى بثلاث أسماء: حجرة الملابس، حجرة الاستقبال، وحجرة الآنسة فلانة... كانت حجرة إيلغا أفضل الحجرات.

كانت إيلغا تجلس على كنبة جديدة مكسوة بالمخمل الذي يجرح العين بلونه الأحمر الفاقع، وقد فُرِش على الأرض تحت قدميها، سجادة جميلة مزركشة. ويضيء حجرتها ضوء وردي ينبعث من مصباح غاز محاطٍ بعاكس وردي اللون. وأمامها يقف شاب شعره أسود حسن المظهر يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، يلبس بدلة نظيفة سوداء اللون. كان الشاب، ويسمى بالصحفي، يحمل بطاقة تمكّنه من الدخول مجاناً إلى كل الأمكنة المشابهة التي تطلب

نشر تقارير صغيرة عن الفضائح التي تحدث داخلَها.. ففضيحة الفيغارو هي أفضل مثال.

فكان أندريه دي أومارين واقفاً أمام إيلغا، يشدّ شاربيه ولحيته، ولا يصرف عينيه عن الحسناء، وكانت إيلغا تتحدث بلهجة فرنسية ركيكة:

- كلا، يا أندريه، لا يمكن أن أكون لك.. مهما كان الثمن!.. مهما أقسمت، أو لاحقتني، أو تذللت لي.. كل هذه الأمور لن تجدي نفعاً معي!

- ولم!

- لم؟ هئ هئ هئ! يا لك من سخيف يا أندريه.. رفضي لك له أسباب عديدة.. أولها: إنك معدم، وقد أخبرتك بأنّ لي ثمناً وهو مئة ألف فرنك... أتملك هذا المبلغ؟

- في الوقت الحالي لا أملك مئة فرنك... اسمعي يا إيلغا.. من الواضح أنك تكذبين! لماذا تقسين على نفسك؟

- ربما أنا أحب شخصاً آخر؟

- وهل لهذا الآخر علم بحبك؟ وهل يبادلك الحبّ؟

- نعم هو يعلم، وهو يبادلني الحب..

- ممم... ومَن حبيبك هذا الحيوان الذي يرضى بأن تكوني في مسرح بلانشار البدينة!

- هو لا يدري أنني في باريس. لا تسبّه يا أندريه...

وقفت إيلغا وراحت تجوب الغرفة، ثم قالت:

- لقد أخبرتني يا أندريه مراراً بأنك على استعداد لفعل أي شيء من أجلي.. ألم تفعل؟ أنا سأخبرك بِمَ عليك فعله.. لا أريد أن يلاحقني المعجبون... فأنا لا أذوق طعم الراحة.. فالمعجبون بي مئة وأنا واحدة فحسب... فلتحكم أنت.. وعليّ أن أردعهم واحداً واحداً.. وأنا لا أحب أن يكونوا غاضبين مني بسبب هذا؟ أرجوك أن تجد لي حلاً.. لقد سئمت حقاً من التودّد والتوسل والمصارحات.

قال دي أومارين:

- سأجد حلاً للتخلص منهم جميعاً، فلا يبقى أحد يضايقك غيري.. أنا؟

فهزّت إيلغا رأسها رفضاً.

اصفرّ وجه أندريه وركع وهو يحدق بإيلغا ويقول متوسلاً:

- لكنْ، أنا أحبك، أحبك جداً إيلغا!

صرخت إيلغا فجأة، فالقلادة المجوفة التي كانت تلعب بها قد فُتحت فجأة لسبب ما، على الرغم من محاولات إيلغا الفاشلة لكي تفتحها، فقد نسي البارون فون زاينيتش أن يخبرها بأن للقلادة قفلاً سريّاً.

- أجل!

صاحت إيلغا والفرح ظاهرٌ على وجهها. بإمكانها أخيراً رؤية محتوى القلادة! لعل هذه القلادة المذهبة تحمل صورته؟ فاتجهت مسرعةً نحو المصباح وهي تأمل رؤية وجهه النبيل بلحيته السوداء

الكثيفة. نظرت إلى القلادة ثم امتقع وجهها، فبدلاً من الوجه ذي اللحية فقد رأت وجه امرأة متكبرة تبتسم بكبرياء، عرفت إيلغا صاحبة هذا الوجه! وقرأت ما كُتب على إطار القلادة الذهبي الذي يحوي الصورة:

- تيريزا غيلينشترال تحبك..

- حسناً إذن؟

احمرّ وجه إيلغا من الغضب ورمت القلادة جانباً:

- أهذا هو الأمر؟ إنها تحبه؟ ممم... هكذا إذن؟...

ألقت إيلغا جسدها على الأريكة، وهي ترتعد من الغضب، وغمغمت:

- كيف تتجرأ على حبك؟ لا يمكن! أندريه! يا إلهي!

قام الصحفي، وربت على ركبته ثم اتجه نحوها.

- أندريه... حسناً، أوافق على حبك، ولكن بشرطٍ واحد!

- نعم من غير ريب! أي شرط! ألف شرط يا عزيزتي!

- لم أكن أنوي فعل هذا، لكني الآن.. مرغمة على القيام بهذا.. أنا أريدك أن تنتقم لي.. هل قمت بزيارة موطني سابقاً؟

اتكأت إيلغا على كتف الصحفي وأخذت تهمس بانفعال، همست مطولاً في أذنه وهي تلوح بيدها، وقام هو بكتابة بعض الملاحظات في مذكرته، ثم سألته:

- هل ستقوم بذلك؟

- من غير شك.. فأنا أكرهها، بعد الذي سمعته عنها..

- سافر فوراً...

- وكيف ستتأكدين بأنني قمت بتنفيذ ما طلبت؟

- سأصدقك حين تخبرني بكلمة شرف وهي أنك قمت بالتنفيذ.

- ماذا بشأنك يا إيلغا؟ عليك إعطائي كلمة شرف بأنك... لن تقومي بخداعي.

فكرت إيلغا لحظةً، ولم لا! لقد قامت بالكذب بدناءة، فكذبت على شخصٍ صادق، نبيل... أوّل مرة في حياتها. فقالت:

- كلمة شرف.

قبَّل الصحفي يد إيلغا ثم رحل. وبعد مرور ساعة كان يجلس على مقعده في مقطورة القطار، وفي اليوم الذي يليه أصبح خارج فرنسا.

بعد أن قامت إيلغا بتوديع الصحفي خرجت من حجرة الملابس إلى القاعة التي تقام فيها الموائد الصغيرة، وقد ارتبكت واصفرّ وجهها، ونسيت أنهم أخبروا الجميع بأنها مريضة، وراحت تمر بجميع الغرف، فكانت تشغل نفسها عن التفكير، ولكن العديد من الأفكار المروعة كانت تدور في رأسها الغاضب. فمجرد التخيل أنّ البارون أحب أو كان قد أحب تلك المرأة فهذا يغضبها بشدة. وعندما قامت إيلغا بالولوج إلى صالة المسرح انصرفت أنظار الجميع إليها وإلى مقصورة مدام بلانشار التي كانت، قُبَيْل دقائق، أخبرت

الجميع بمرض إيلغا وملازمتها لسريرها. وفجأة سمعت الفنانات الحديثات اللاتي يقمن بأدوارهن على المسرح سمعنَ هتافاً وتصفيقاً فبدأن بالانحناء... لكن الحضور لم يكن يحيّيهنّ ويصفق لهنّ، بل هتف الحضور المتحمس:

- هيا إلى المسرح! أناشيد هنغارية! إلى المسرح! إيلغا! أحسنتِ!

وجهت إيلغا ابتسامة لجمهورها، ثم أومأت بيدها إلى حلقها، وغادرت القاعة لتقوم بلانشار بالتفاهم مع الحضور المغتاظ.

مشت إلى إحدى مقصورات المطعم الذي كانت تتناول العشاء فيه مع الرفاق، فتبعها معجبوها إلى المقصورة.

كانت مائدة الطعام هذه المرة كئيبة على غير العادة. كانت إيلغا تلوذ بالصمت ولم تتناول شيئاً من الطعام، وعوضاً عن المزاح والضحكات واللكنة الفرنسية الركيكة فإنّ الرفاق لم ينالوا منها غير التنهيدات العميقة، كما كان سيزي المسؤول عن تجهيز الموائد عابساً أيضاً، فغمغم وهو يحدق بإيلغا:

فلتذهب هذه الملامح البريئة والوجه البريء إلى الجحيم.

أما الفارس ديزيريه فكان يتناول طعامه بصمت، فقد صار هذا الشاب تعيساً كثير التفكير في الفترة الأخيرة.. فإيلغا تريد مئة ألف، وهو لا يملك ألفين، توفي والده منذ أيام، وحجز الدائنون على ممتلكاته، ولم يكن ديزيريه يأمل في الحب الطاهر الخالي من الأطماع، فهو لا يتمتع بالوسامة، ومثل هؤلاء الفتيات يطمعن بالمال..

أما أدولف، ابن عامل المصرف باخ، فقد وعد الجميع بشمبانيا على حسابه الخاص. كان يجلس بقرب إيلغا ويتصرف كما يشاء؛ يفعل ذلك لأنه كان أغنى رجلٍ في المقصورة.. فكان يحتسي النبيذ من الكأس الخاصة بإيلغا ويهمس في أذنها وما إلى ذلك من تصرفات، وكانت تصرفاته تزيد من شعور الحاضرين بالكآبة؛ فهم يكرهون أدولف باخ لأنه ثري.

بالقرب من النافذة التي تبعد خطوات قليلة عن مائدة العشاء، كان يجلس رجلان عجوزان: الأول هو مالك معمل في ليون يدعى مارك لوفرير، والآخر.. لا يمكنكم التعرف إليه، إنه صديقنا القديم عازف الكمنجة تسفيبوبيتش، فقد تغير شكله كثيراً إذ إنه فقد بعضاً من وزنه، وأصبح وجهه شاحباً، ولم تكن جبهته تلمع بسبب العرق، وكانت اللامبالاة والاستسلام للقدر يظهران في عينيه، فلم يعد العجوز تسفيبوبيتش يهتمّ بأي شيء... فهو يشعر بأنه خسر كل شيء عندما خسر إيلغا.. لم يعد يرتدي ملابس بالية، فجسده يهزل مع مرور الوقت وهو يلبس قميصاً أبيضَ مزيناً بأزرار مذهبة، وبدلةَ سهرة سوداء، وكان يتحدث بموضوع الأدب مع لوفرير، الذي كان أحد المعجبين بإيلغا.

عندما اقتربت الساعة من الثالثة كان جميع الحاضرين قد ثَمِلوا إلاّ تسفيبوبيتش وإيلغا ولوفرير، وقد أثّر الثَّمَلُ في بعض رواد حفلات الشراب العابسين الكئيبين. وأشعل الغرام رؤوسهم الثَّمِلة، وانطلقت ألسنتهم السليطة... وفي الساعة الرابعة عادت إيلغا إلى المنزل مع والدها. وقبل مغادرتها كان كل رجلٍ منهم شديد الحرص على أن يهمس لها ببعض الكلمات، فكان كل واحد منهم

يهمس لها: - أحبك، ويعدها بالنعيم. وكانت هي تردّ بشيء واحد:
- مئة ألف!

وفي شهر أيّار (مايو)، وفي إحدى الليالي المشابهة، جاء أخيراً الرجل الذي أصبح قادراً على أن يدفع إلى إيلغا مئة ألف فرنك، ويضع نهاية لتلك المهزلة، وكان هذا الرجل هو الفارس ديزيريه.

ففي تلك الليلة، وفي الساعة الثالثة صباحاً، كان الجميع ثملين، فدخل الفارس إلى المقصورة، شاحب الوجه ولكن تملؤه الحماسة، فدنا من إيلغا دون أن يقدم التحية إلى أحد، وأخذ بيدها وانزوى بها جانباً، ثم قال بصوت خافت:

- إنها معي... هاكِ... أتدرين ماذا فعلت؟ قمت بسرقة عمّي.. سيقومون بمحاكمتي غداً.. هاكِ! أنا أوافق!

- انطلقت صرخة فرح من فم إيلغا، صارت تملك مئة ألف! ولكن اصفرّ وجهها كالموتى: عليها أن تدفع مقابل هذا المبلغ...

اقترب أدولف باخ من إيلغا فقد كان يراقب تصرفات ديزيريه، وعندما سمعه يقول أوافق عبس وجهه:

- وأنا أوافق!

قالها بسرعة ووضع يده في جيبه، أنا أيضاً سأدفع لك مئة ألف.

تبسم ديزيريه باستهزاء، فهو لم يعد يرى في الفتى باخ نداً له:

- لقد وافقتُ أنا أوّلاً... وحبذا لو تذهب إلى النوم، مربّيتك في انتظارك.

- لا أنام مع مربيتي، لا يروق لي وجهك يا ديزيريه، فوجهك يتوق إلى صفعة! أنا سأدفع مئة وعشرة آلاف فرنك!

- وأنا سأدفع مئة وعشرين ألفاً!

قام ديزيريه بسرقة مئة وعشرين ألفاً كاملة، ثم ما لبث سيزي الثمل-الذي كان يحدق بإيلغا كما يحدق الثعبان بفريسته من الأرانب- ما لبث أن نهض ودنا من ديزيريه وباخ، ثم غمغم:

- إنكما.. إنكما.. تقبلان؟ أجننتما! لابد أنكما قد جننتما حقاً! مئة ألف! هئ - هئ - هئ! آسف يا مادموزيل، ولكن.. أتوافقينني الرأي..

أكد ديزيريه:

- سأعطيكِ مئة وعشرين ألفاً!

قال الفتى باخ وهو يضحك:

- وأنا سأعطيك مئة وعشرين ألفاً نقداً! الآن وفي هذه اللحظة!

تمايل سيزي، وهو لا يصدق ما يسمع، أيعقل ما يقوم به هذان الغبيّان! أن يدفع الواحد مئة ألف إلى هذه المرأة؟ كان بمقدوره أن يحصل عليها مقابل خمسة آلاف متى شاء! أيعقل أن يحصل عليها... غيره؟ فصرخ قائلاً:

- لا يمكن!

فاقترب رابعٌ وهو يقول:

- وأنا مستعدٌ أن أدفع مئة وعشرين ألفاً! كان هذا الرجل يمتلك أراضيَ في أرياف مرسيليا، قامته طويلة، وعظيم الجسم، يسمى آركو، وهو فاحش الثراء، والتخلي عن مئة ألف لهذه الفتاة لن يضرّه شيئاً، فمنذ فترة فَقَدَ زوجته وابنه الوحيد، وهو الآن يحاول التغلب على حزنه بالشرب، ويشتري الحب بالنقود.

- وأنا أوافق أيضاً! - قالها الصربي بووتيتش الذي يقول إنه يعمل سكرتيراً في إحدى السفارات، وينفق، كل يوم، بإسراف مبالغ ضخمة.

أصبح سيزي يقلب في مذكرته، ويكتب ويعُدّ، والقلم ينساب على المذكرة انسياباً.

- لم كل هذا يا سادة؟ أليس للمال قيمةٌ عندكم؟ ولِمَ تصرّون على مئة وعشرين ألفاً؟ لِمَ لا تكون مئة ألف فحسب؟ ثلاثون ألفاً.... لم لا تكون مئة ألف فحسب؟

هتف باخ وهو يرمق منافسيه كالمنتصر:

- مئة وخمسة وعشرون ألف فرنك!

فصاح سيزي:

- أوافق! أوافق! أوافق أيضاً، أخبرناك بهذا!

قالت إيلغا لباخ:

- لا أوافق على الزيادة التي قمت بها. فلتلغِ الخمسة آلاف فرنك، أنا أقبل بمئة وعشرين ألف فرنك... ولكن من سيدٍ واحدٍ فقط لا من الجميع، فمن يكون يا ترى؟

قال الفارس:

- أنا، فأنا من قبل بالعرض أولاً..

وقاطعه الباقون:

- هذه سخافة! يا لها من سخافات! لا فرق إن كنت الأول أو الثاني.

فقالت إيلغا:

- إنها حقاً سخافات، ولكن ما الحل؟ فأنا معجبةٌ بكم جميعاً.. لا فرق عندي بينكم.. فجميعكم ظرفاء، لبقون... وجميعكم تحبونني بنفس القدر... كيف نحلها؟

- فلنقترع! اقترحها شاب لم يقم بالمشاركة في هذا المزاد، لكنه يحسد المزايدين.

أجابت إيلغا:

- أنا موافقة، فلنقترع، أيوافق الجميع على هذا؟

- نعم نوافق! قال الجميع إلا الفارس فقد انزوى جالساً على طرف النافذة ويعضّ شفته السفلى الغليظة بلا رحمة.

- حسناً يا سادة سنكتب قصاصات... ومن يحصل على القصاصة المدوّن عليها اسمي يكسب.

- اكتب القصاصات يا بابا تسفيبوبيتش!

مدّ تسفيبوبيتش بإذعانٍ كعادته يده إلى جيب فرائه الجديد ثم أخذ ورقة، وقطعها إلى قصاصات صغيرة ودون اسم إيلغا على إحداها.

فقالت إيلغا:

- فليضع كل منكم أيها السادة نقوده على هذه الطاولة! القصاصات أصبحت جاهزة!

فسأل باخ:

- ما المبلغ الذي على كل واحدٍ منا أن يدفعه؟ كم يبلغ عددنا؟ ثمانية أشخاص؟ إذن مئة وعشرون على ثمانية أشخاص، النتيجة، النتيجة...

فبادرت إيلغا إلى القول:

- فليضع كلُّ شخصٍ مئةً وعشرينَ ألفاً!

- ماذا؟

- مئة وعشرينَ ألفاً!

فقال الصربي:

- أنتِ لست جيدةً في الحساب يا عزيزتي! أو إنّ هذه مزحة؟

ردت إيلغا:

- مئة وعشرين ألفاً... لن أقبل غير هذا.

سكت الجميع ثم ابتعدوا عنها، وجلسوا مستائين إلى مائدة الشرب. راح سيزي يسبّ ويبحث عن قبعته وقال:

- إنّ هذا نَصْب! احتيال! أتستغلّين كون دمائنا نحن الحمقى، الحمير الثَّمِلين، ثائرة؟!

وقال باخ:

- وأنا لن أدفع سنتيماً واحداً.

فقالت إيلغا:

- أنا لم أطلب. على كل حال لقد حان الوقت للذهاب إلى المنزل... هيا بنا يا بابا تسفيبوبيتش؟ فلنذهب! واحفظ القصاصات للذكرى.

فقال الرجال:

- إلى اللقاء! اذهبي إلى وطنك هنغاريا وفتشي هناك عن حمقى ليدفعوا لك مليوناً! أتريدين مليوناً؟ إذن فاعلمي يا حمقاء أن بوسعك شراء باريس كلها بهذه المليون! إلى اللقاء!

ولكن الرغبة الشديدة قد بلغت ذروتها.. عندما صافحت إيلغا كل واحدٍ منهم بحرارة، وودعت كلًّا منهم بكلمات حانية، ثم غنت لهم أغنيتها الأخيرة فبلغت الرغبة ذروتها...

وفي الساعة الخامسة كان أول نادل يمر بهم يسحب القصاصات المربعة من قبعة باخ.. وعندما فتح كلٌ منهم قصاصته خرجت ضحكات الحزن من صدور الرجال، ضحكات يملؤها اليأس والسخرية من حظهم السيئ.

فلقد كانت القصاصة التي كتب عليها اسم إيلغا من حظ مالك المصنع: ليون العجوز مارك لوفرير، الذي راهن للمزاح فحسب بمئة وعشرين ألفاً، وكان يكفيه الحصول على قبلة فحسب!

8

كانت ليلة باردة جداً من ليالي كانون الأول (ديسمبر)، وكان أوّل النجوم يلمع في السماء، والقمر يعوم في هذا الصقيع، ويسود الهدوء والسكينة في المكان، فلا صوت لأيّ حراك في الأنحاء.

كان البارون فون زاينيتش يمشي في الطريق الواسعة، التي تمر خلال الغابة، ذاهباً لتناول العشاء، بعد أن قام منذ نصف ساعة بتوديع تيريزا غولداغوين في كنيسة فرانتسيسك، بعد أن اتفقا على اللقاء في اليوم التالي. انعطف كما اعتاد إلى منزل حارس الحراج ليسأل عما وصله من رسائل، فناولته مدام بلاوكير ظرفين: ظرفاً ضخماً جداً وآخر صغيراً جداً، فكان الظرف الصغير من إيلغا من باريس. وضعه البارون داخل جيبه دون قراءته، لأنه على علمٍ بمحتواه: «أحبك»، فلم يكن باستطاعة إيلغا أن تحرز ما هو أكثر ذكاء وجديةً من ذلك. وكان عنوانه مكتوباً على الظرف الضخم بخط بيلتيزير. ولو أنه لم يقرأ ما كُتب أعلى الظرف «أوراق مهمة» لوضع هذا الظرف أيضاً في جيبه. فكر البارون قليلاً ثم قام بفتح الظرف، ليجد وصية والدته، فقام بقراءة محتواها، وكان كلما استمرّ بقراءة الوصية – التي تحوي في نهايتها على توقيع يدٍ غالية عليه لطالما

كانت تهدهده - كلما بدت دهشته واضحةً على وجهه. فقد قامت والدته بالتوصية بكل ما تملك له ولم تبقِ لأخته شيئاً... لكن لماذا يرسل إليه الزوجان بيلتيزير هذه الأوراق الآن؟ فقال في نفسه:
- أووه! ربما ندما! لو فعلا ذلك منذ زمن...

لم تكن أرض أمه كبيرة، ولم يكن إيرادها يتعدى العشرة آلاف تالر في السنة، ولكن أرتور كان يسعد بانتزاع هذا المبلغ، ولو كان قليلاً، من بين يدي البخيل بيلتيزير المستعدّ للقيام بأي شيء في سبيل الحصول على تالر واحد.

سأل أرتور مدام بلاوكير أن تعطيه ورقة ثم جلس إلى الطاولة يكتب رسالة إلى بيلتيزير. فكتب إنه قد استلم وصية والدته، وأنه يريد أن يعرف أين ذهبت عائدات أرض أمه منذ أن أوصت بها له حتى الآن؟ ثم ناول الرسالة لفراو بلاوكير فقامت بإرسالها إلى البريد في اليوم التالي. أتاه الرد على رسالته من بيلتيزير بعد أسبوع، ولكن رده كان غريباً وغير مفهوم، فقد قال بيلتيزير في رسالته: «أنا لا أعلم أي شيء، لا عن الوصية ولا العائدات، فلتتركنا وشأننا..» -ما الذي يعنيه بهذا؟- تساءل أرتور بعد قراءته الردَّ - غريب حقاً! ربما ندم على إرساله الوصية إليّ، مممم... حسناً إذن فليكن الأمر هكذا!

في اليوم التالي لاستلام أرتور الردَّ، قصد المدينة وقام بتقديم دعوى قضائية للمطالبة بتنفيذ وصية والدته، وبدأت القضية.

صار أرتور يكثر من الذهاب إلى المدينة. كان في بداية الأمر يقصد المحكمة، ثم أصبح يقصد محاميه. وكانت تيريزا في أغلب الأوقات تجلس وحيدة في كنيسة القديس فرانتسيسك، يُضجرها

الانتظار ويعذبها، فكانت تنتظر في الكنيسة وتحدق إلى عيني القديس فرانتسيسك المرعبتين وتستمع إلى أصوات الرياح.

وتتوهج عيناها فرحاً عندما تسمع وسط أصوات الرياح في الخارج صوت خطوات البارون، ويصفرّ وجهها عند خروجها مساء من الكنيسة دون مقابلته! على الرغم من أنه كان يقابلها في الكنيسة لإزعاجها وللإساءة والضحك فحسب.. وكانت تيريزا تنتظر الربيع بلهفة، حتى يتمكنا من التقابل في الخارج مجدداً. لكن الربيع أقبل يحمل الحزن والشقاء...

ففي أحد أيام الربيع الدافئة الهادئة، بعد الغداء، كانت تيريزا في ساحة التيس البرونزي في انتظار أرتور، تجلس على عشبٍ حديث النمو وتنصت إلى خرير الجدول القريب منها.. والشمس ترسل أشعتها الدافئة على كتفيها الجميلتين.

كانت تحدث نفسها إن كان سيحضر أو لا؟ فقد أصبح أرتور مشغولاً بالقضية، وصار يحضر إلى ساحة التيس البرونزي مُكرهاً، لكنه في ذلك اليوم بعد الغداء حضر، وكان مخموراً كعادته، وكان مُقَطَّب الوجه مستاء.

- أوووه.. أنتَ هنا؟ سألته تيريزا وقد سُرّت برؤيته

- تحياتي! من الجميل أن يكون المرءُ عاطلاً عن العمل! حقاً إنه جميل! فالعاطل يتنزه دائماً ويجلس فوق الحشائش الخضراء.

وما لبث البارون أن جلس إلى جانب تيريزا حتى بدأ بالبصق جانباً بغضب، فسألته الكونتيسة:

- أغاضبٌ أنت؟

- نعم، من الزوجين بيلتيزير الخسيسين، أتدرين ماذا فعلا؟ لقد أرسلا إليّ وصية مزوّرة، كالمرأة تماماً، إنها زائفة، وقد ذهبت إلى المحكمة للمطالبة بتطبيقها، والآن سأحاكم بتهمة التزوير.. لقد أوقعاني في فخٍّ ماكر! فهما يقومان برفع أكتافهما إنكاراً عند رؤيتهما للوصية، يدّعيان عدم معرفتها، قاما بالتزوير وأنا أُعاقب! يا للعجب! لقد طلبوا مني التعهد بعدم السفر، وسيبدأ قريباً القاضي بالتحقيق في الأمر وإضجاري، يا إلهي! هئ - هئ! لقد قام البارون فون زاينيتش بتزوير وصية أمه! لا يستطيع أحد التفكير في مثل هذا الأمر، إلّا المحتال. يا بيلتيزير! آه، وأنتِ يا صاحبة السعادة؟ لقد علمت بالأمس أنك حصلت على الطلاق من الكونت، وقد انتهى ما يجمعكما، فلماذا ما زلت تقطنين هنا؟ لماذا لم ترحلي وتغادري منزل زوجك، وكل الأماكن التي تذكرك بالرجل الذي تبغضينه؟

ردت تيريزا:

- لا أرغب في الرحيل عن هذا المكان.

- ممم.. هل لي أن أسألكِ لِمَ؟

- أحقاً لا تعلم؟

- وكيف لي أن أعلم؟

وساد الهدوء لحظةً، فكلاهما على علمٍ بسبب بقائها، ولِمَ لَمْ ترحل وتغادر هذه الأماكن، لكن أرتور يصرّ على تعذيبها...

- لأنني.. ألا تعرف؟ لأنني أحبك. اعترفت الكونتيسة واكتسى وجهها المعتز والحازم بالحمرة..

- أنا أحبك يا أرتور.. ولولا ذلك لما كنت الآن في ساحة التيس البرونزي.

ثم نظرت إلى تعابير وجه أرتور، فكان وجهه الثَّمِل المُتَهكم يخبرها بالحقيقة، وصمته يؤكد أيضاً ذلك، فهو لا يحبها. ثم تساءلت وهي تشد على أصابعها:

- ولم كنت تحضرُ إلى هنا؟ لِمَ لَمْ تصرف النظر عن هذه المقابلات من البداية؟

فرد أرتور:

- لقد كان الملل يتملكك، وأنا لا زلت شهماً مع السيدات وأقوم بما يسعد النساء الجميلات، هئ - هئ!

- ما هذه السخافة!

- أعتذر عن عدم قدرتي على مبادلتك الشعور بالحب، فأنا مغرمٌ بفتاة أخرى.

ثم أخرج أرتور من جيبه الجانبي صورة إيلغا وهو يقهقه، وقرَّبها لتكون بمحاذاة عيني تيريزا.

- هذه هي حبيبتي، أتذكرينها؟

- أهي ابنة ذلك الشيخ؟ وكيف أصبحتْ ترتدي هكذا!

- لقد أصبحت أنيقة جداً بلبسها.. وجهها جذاب!

- وأين تمكث الآن؟

سكت أرتور، فلم يتمكن من إثارة غيرة تيريزا كما كان يتمنى، فلم تغتظ الكونتيسة ولم يحمرّ وجهها عند رؤيتها الصورة.. بل تنفست بعمق، وثَمَّ -يا للعجب!- بدا الحنان ظاهراً في عينيها عندما نظرت إلى وجه إيلغا الطفولي الجميل.

قال أرتور:

- إلى اللقاء! وداعاً! سأذهب لأقرأ بعض القوانين، أووه يا بيلتيزير، بيلتيزير! لو أقول في المحكمة إنه هو من بعث لي بالوصية، لسخروا مني!

ثم استدار أرتور، وراح يسير تجاه وسط الغابة وهو يشير بيديه. وتوجهت تيريزا ناحية جوادها الذي كان يأكل الأعشاب الطرية بخمول، ثم قالت لأرتور وهي تنظر إليه:

- سنغادر هذا المكان ولن نرجع مرة أخرى، فهم لا يحبوننا، ولن نقبل صدقة منهم.

امتطت تيريزا جوادها وانطلقت إلى طرف الغابة، وبدت الصرامة في عينيها، وعند عبورها بوابة البستان الذي يؤدي إلى الطريق الطويلة الضيقة المشجرة التي ذكرناها في الفصل الأول من القصة، فإنها سمعت صوت خطوات تأتي من خلفها. استدارت فرأت شاباً غريباً يعدو خلفها حاملاً بيده سوطاً، وهتف بالفرنسية:
- لحظة! فأوقفت الكونتيسة حصانها وهزت رأسها للشاب. وقالت لنفسها:

- من غير شك، إنه يريد شيئاً.

دنا الصحفي دي أومارين منها وهو يبتسم بفرح، ورفع سوطه وهو يتأمل في حسنها، ثم قال:

- أنت قاسية بقدر ما أنت جميلة! ولكن لا يجوز للإساءة أن تمرّ دون عقاب. لتتذكري الشيخ العازف وابنته!

ثم شعرت الكونتيسة بوجعٍ يحرق في وجهها.. وقالت:

- حسناً إذن فليكن هذا! ثم شدت لجام جوادها وانطلقت.

بقي دي أومارين وقتاً طويلاً ثابتاً في مكانه ينظر في أثر الكونتيسة الحسناء. وراودته رغبة في التعرف إلى هذه المرأة التي قام بضربها، وردت على ذلك بقولها: «حسناً إذن فليكن هذا»، لكنها ما لبثت أن غابت عن نظره، فاستدار ورجع بسرعة متجهاً نحو محطة القطار. لقد تمّت بنجاح المهمة التي وكّل بإنجازها وهو الآن عائد لاستلام الجائزة...

9

أخبرت مدام فراو بلاوكير أرتور في إحدى الأمسيات، عندما مرّ بها ليسأل عن الرسائل:

- إن سيدةً حضرت إلى هنا تريد مقابلتك! وتركت لك هذه البطاقة. قرأ أرتور محتوى البطاقة: «أنا أقيم في فندق المرساة الكبيرة احضر بسرعة. إيلغا».

سار أرتور متجهاً نحو المدينة، والتقى إيلغا عند منتصف الليل بالضبط. وما أن وقع نظره عليها حتى راح يضحك، تبدو أنيقة جداً بهذه الثياب، فهي لا تشبه تلك الفتاة المغنية التي قابلها مرةً في الغابة، وهي تبكي بحرقة!

سألها وهو يضحك:

- هل حضر المليون؟

- نعم، ها هو ذا!

توقف أرتور عن القهقهة فجأة. فقد رأى أمامه على الطاولة مليوناً، حقاً مليوناً! فقال وهو لا يكاد يصدق ما يرى:

- يا إلهي! يا صغيرتي، كنت تجمعين بالفرنك؟ نسيت أن أخبرك أن تجمعي بالتالر... لكن لا يهم.. فهذا مبلغ لا بأس به! من أين لك هذا المال؟

جلست إيلغا بجواره وراحت تروي له ما حصل معها منذ أن تركته، فسألها أرتور:

- هاه؟ وماذا بشأن الشيخ لوفرير؟

لقد سقيته بعض المورفين وفررت في ذلك المساء دون تردد.

- يا له من تصرفٍ عفيف! هئ هئ هئ! لو حدث ذلك في يوم آخر لكنت ضربتك، ولكن الآن فلتكوني البارونة فون زاينيتش! خذي بيدي! وسنتوجه في الغد إلى عمدة المدينة!

في اليوم الذي يليه توجه أرتور وإيلغا إلى عمدة المدينة، وفي تمام الساعة التاسعة والنصف صباحاً في الثاني من حزيران (يونيو) أصبحت إيلغا هي: البارونة فون زاينيتش.

وفي الساعة الثانية من ظهر نفس اليوم انتُزع من أرتور فون زاينيتش لقب البارون، فقد أصدر المحلفون حكمهم بإدانته بتهمة تزوير الوصية.. ونال الزوجان بيلتيزير مبتغاهما.

في قاعة المحكمة رأت إيلغا الكونتيسة غولداغوين. كانت الكونتيسة جالسةً، على أحد مقاعد القاعة الخلفية، منعزلة عن الجميع وتنظر إلى المتهم، وكانت تغطي وجهها بقماش داكن ينزل عن قبعتها، وهي في أغلب الظن لا تريد أن يتعرف إليها أحد، ولم تتعرف إليها إيلغا إلا من صوتها الرقيق حينما هتفت بصوت عالٍ بعد سماعها لمداخلة المدعي العام:

- يا للغباء!

- لا يحق لها أن تنظر إلى زوجي؟

قالت إيلغا هذه العبارة لنفسها في نفس الوقت وقد امتقع وجهها كراهيةً وفخراً بنصرها. فلقد أصبحت متيقّنة من أنها قد انتصرت عليها، فقد أخذت من الكونتيسة حبيبها.

وفي المحكمة كان المتهم يقوم بتصرفاتٍ شديدة الغرابة، فقد كان مخموراً قليلاً، وكانت تعليقاته المهينة الجارحة تنهال من فمه انهيالاً. وكان يسكت في الوقت الذي عليه التحدث، ويتحدث في الوقت الذي عليه التزام الصمت، ويتجاهل كلاً من القاضي والمحلّفين. وعلى الرغم من أن المدعي العام كان يدرس معه في الجامعة لكنه لم يرحمه في مداخلته. فقد كان ينبش بلا خجل في ماضي زميله الذي كان يعرفه. فقد سرد قصة حياته في باريس وإفلاسه، واحتياجه الشديد إلى المال، والحياة الشاقة التي عاشها البارون فون زاينيتش بسبب حاجته إلى المال، وختم مداخلته بشِعْر تمجيد وثناء على السيدة بيلتيزير التي قامت بالتضحية بأخيها الحبيب في سبيل تحقيق العدالة والعقاب على الجريمة.. وقال:

- لقد كان تصرفها يعبّر عن الوطنية.

جاءه الرد من أرتور:

- ألا تخجل من نفسك! فيما مضى، عندما كنا زملاء في الجامعة وكنت تشرب من سجائري، فلم تكن تجيد الكذب مثل الآن!

فكانت هذه هي الجملة الوحيدة التي قالها بجِدٍ وصدق، أما باقي كلامه فقد كان هزلاً يُضحك الحضور ويستفز جرس القاضي.

وقد صفق الحضور بحرارة حينما صدر حكم الإدانة، إذ كان أغلبهم من أنصار آل بيلتيزير، أما مؤيدو أرتور فلم يكن لهم مكان في قاعة المحكمة، لأن أتباع اليهودي قد احتلوا كل الأماكن منذ الصباح الباكر. أصغى أرتور إلى الحكم الصادر بحقه بصبرٍ ثم قال:

- أنا أعلم طريق الذهاب إلى الإمبراطور، وعندما أحتاج إلى لقب البارون، فسأتوجه إليه، وفينّا التي تعرف من أنا ستسخر من حكمكم هذا!

كان الشعور بالمرارة والخجل والتقزز من الناس وتصرفاتهم قد غمر نفس الكونتيسة التي خرجت من قاعة المحكمة إلى عربتها، لقد قاموا توّاً بالحكم على شخصٍ بريء بتهمة التزوير، فلم يكن من الصعب قطّ خداع هيئة المحلفين المكتنزين الساذجين، ولا يلزم إلّا أقل القليل لتدمير حياة شخص!

- سأعيد اللقب إليه!، قالتها والغضب يتملكها. أَخْبَرَهم بأنه يعرف طريق الذهاب إلى فينّا لكني أعلم أنه لن يسعى لأجل ما هو سخيف في نظره، كالألقاب والسمعة الحسنة، كما أنه كسول ومتخاذل.. لكني سأسعى لتحقيق العدالة من أجله.. ثم حادثت نفسها:

- سأقدم ذلك إليه صدقةً، وسيقبلها على الرغم منه.

وفي اليوم التالي توجهت الكونتيسة إلى نادي القرية حيث يقيمون احتفالاً لجمع التبرعات، وقامت ببيع بعض البطاقات، فقد نصبت في البستان شمسية من الرايات والكروم والزهور الطبيعية ووضعت تحتها طاولات تحوي دواليب لبطاقات يا نصيب.. وجلست على الطاولات ثماني سيدات نبيلات جميلات أنيقات يقمن

ببيع بطاقات اليانصيب. وكانت الكونتيسة هي الأمهر بينهن، حيث كان دولابها يدور دون توقف، وتعيد باقي المال للزبون. وقد قام بيلتيزير بالحضور وشراء ألفي بطاقة يانصيب منها، فسألته الكونتيسة وهي تأخذ منه ثمن البطاقات:

- كيف هو حال شقيق زوجتك؟

تنفس بيلتيزير بعمق وهو يقول:

- لقد نزلت به، المسكين، ضائقتان: زواجه و... سحب لقب البارون منه..

- لقد وصلني ذلك... وأين هي زوجته؟

- إنها حاضرة هنا، ألم تقابليها؟ يا له من أمر مضحك! هئ- هئ.. لقد أصبحت بارونة.. ولو أنهما أخَّرا زواجهما بضع ساعات لكانت هي الآن السيدة زاينيتش فحسب...

وراحت الكونتيسة تتفحص بعينيها وجوه الحاضرين بحثاً عن إيلغا.

كانت إيلغا حاضرةً في الحفل، وقد قامت بالمرور بمحاذاة الكونتيسة رافعة رأسها وتبتسم بفخر وكبرياء، لكن الكونتيسة كانت منشغلة ببيع البطاقات فلم تنتبه لها. ثم عاودت الكرة وقد أحاطت بها مجموعة من الحاضرين يحدقون بوجهها الحسن، فنظرت إليها الكونتيسة لحظةً، لكن من المرجَّح أنّها لم تتعرف إليها، وفي المرة الثالثة التقت نظراتهما، وكم كان سرور إيلغا كبيراً لمّا لاحظت ارتباك الكونتيسة، التي ارتعشت يداها ووقع منها بعض القطع النقدية التي رنّت وهي تتدحرج على الأرض.

فاقتربت إيلغا من الطاولة التي تجلس عليها الكونتيسة، وتناولت بعض البطاقات وهي تحدق إلى وجهها وقالت:

- أودّ أن أهب هذا الشيء الصغير للمدرسة، ودون انتظار جوابها وضعت في يد الكونتيسة القلادة الذهبية. تناولت الكونتيسة القلادة التي تعرفها جيداً ثم قامت بفتحها وابتسمت؛ كانت صورة وجهها مخرمة بدبوس. فقالت وهي ترجع القلادة إلى إيلغا:

خذي هذا الشيء إلى مسؤولي النادي، فنحن نهتم فقط ببيع بطاقات اليانصيب.. ثم أردفت بابتسامة ناعمة:

- اسمحي لي، فلا وقت لديّ!

لم تكن إيلغا قد اعتادت على مثل تلك المشاحنات، وقد اضطربت من ابتسامة الكونتيسة الباردة وهدوئها، فغادرت الطاولة بخجل، وتملكها الحزن والاستحياء. وانتبه المحيطون بالكونتيسة لاضطرابها، وراحوا يتغامزون ويبتسمون، وقد أصابت هذه الضحكات قلب إيلغا كالسهام.

قالت إيلغا للشباب الواقفين كالحائط أمامها يحدقون بها بفضول: «عفواً، أريد العبور»!

فراح الشباب يقهقهون فجأة دونما سبب، وعلت أصوات القهقهات من الخلف أيضاً، فالتفتت إيلغا ورأت مجموعة مماثلة من الفتية، وقالت مرة أخرى:

- عفواً! هل لي بالمرور؟

وعلت القهقهات من جديد، واصطدمت سدادة كبيرة لقنينة بيرة بخدّ إيلغا الوردي، وأصابت سدادة ثانية كتفها اليمنى... فهتف أحد الفتية:

- هئ - هئ -.. أورّرا! البارونة فون زاينيتش، زوجة النصّاب الذي جرّدوه من لقبه!

وعلت أصوات الاستنكار، ثم انطلقت سدادتان ثالثة ورابعة لتصيب وجهها في آنٍ واحد. فنظرت إلى الكونتيسة وقد غمرها شعور الذل والقهر وكادت تغيب عن الوعي، وهي تتوهم أنها تضحك منها أيضاً... فأظلمت عيناها، وأحسَّت بالدُّوار وانجذب رأسها إلى الأرض بقوة، ثم صرخت:

- أرتور!

لم يستجب أحدٌ لندائها، فبارونها الذي جُرّد من لقبه كان بعيداً عنها، يتمدّد ثملاً تحت إحدى الأشجار، قريباً من بيت بلاوكير، يحلم بالحصول على المليون...

اقتربت الكونتيسة من السيدة التي تعرضت للإهانة، والتي لم تتمكن من التعرف إليها بسبب إغمائها، وأحاطت بكتفيها وأبعدتها عن المحيطين بها.

قالت إيلغا وأغمي عليها: دعيني! أرغب في قتلها!

استيقظت إيلغا لتجد نفسها في حجرة صغيرة أُلبست بقماشٍ من المخمل بلون التوت، وهي تتمدّد على كنبة وتجلس جانبها فتاة تحمل بيدها زجاجة صغيرة، فسألتها إيلغا:

- أين أنا؟

فردت الفتاة:

- إننا في النادي يا مدام.

وأكد كلامَها نغماتُ المازوركا التي كانت تسمعها إيلغا. رفعت رأسها الثقيل، وفكرت لحظةً ثم تذكرت ما حصل معها، ثم قالت للفتاة:

- هل لي بكأسٍ صغيرةٍ من الرينغين.

وما لبثت الفتاة أن غادرت الحجرة حتى قامت إيلغا بتناول محفظتها من جيبها، وأخرجت منها زجاجة صغيرة جداً تحوي بداخلها على المورفين. المرفين نفسه الذي سقته للعجوز لوفرير منذ فترة ليست بالطويلة، هاي هي الآن ستسقي نفسها منه، لشدة تأثرها بالإهانات التي وجّهها إليها بعض الناس..

قامت إيلغا بتناول ما في القارورة كلّه، ثم ألقت رأسها على الوسادة المخملية مستسلمة للأفكار، ومنتظرة الموت. لم تكن آسفة على مفارقة هذه الحياة التي لا قيمة لها، بل كانت حزينة لأنها ستفارق بابا تسفيبوبيتش، هو من كانت حزينة لفراقه فحسب! حتى أرتور الذي كان يهوى الشرب أكثر من زوجته الفتيَّة فلم تكن تأسف على مفارقته.

ثم سمعت صوتاً رقيقاً يسألها:

- كيف أنتِ الآن؟

مالت الكونتيسة، خصمُها اللدود، أمامها، ورأت إيلغا أمامها عينين تلمعان، وخدين أحمرين، ثم لاحظت خطاً أحمر رفيعاً على خدها الأيسر وتمتمت:

- دي أومارين!

قالت الكونتيسة:

- إن الذين قاموا بإهانتك سينالون عقابهم، فقد قام بيلتيزير باستئجارهم لأنه يبغض أرتور... سينال بيلتيزير الحقير عقابه.. فأنا قوية.. هل لا تزالين ساخطة عليّ؟

أشاحت إيلغا بوجهها عنها.

- هل أنت غاضبة عليّ يا إيلغا؟ أووه.. اغفري لي.. لقد أخطأت.. لقد قمت بإهانة والدك، وأهنتك أنت أيضاً.. أعترف بهذا.. وأطلب السماح.

ثم قبلت رأس إيلغا.

- لقد قمت بالبحث عنك طويلاً.. فلم يعرف ضميري الراحة ليلاً ولا نهاراً منذ أن رأيت نظراتك في ذلك اليوم المشؤوم.. فقد كانت نظراتك الحارقة تزورني في أحلامي...

بدأت إيلغا بالبكاء، ثم قالت بصوتٍ خافت وهي تستسلم للنوم على صوت الموسيقى الهادئة لعدوتها النادمة:

أنا أموت.

أرجو أن تسامحيني يا إيلغا، فأنا أسامحك أيضاً...

رفعت إيلغا يدها إلى عنق الكونتيسة، فمالت الكونتيسة نحوها وقبلتها، همست إيلغا:

- أنا أموت، فقد قمت بتناول المورف.. على الأرض..

التفتت الكونتيسة لترى الزجاجة ملقاة على الأرض.. وفهمت ما أرادت إيلغا قوله، وبعد لحظات وجدوا طبيباً في النادي وأحضروه لإيلغا. ولم يستطع الطبيب شيئاً، عدا إثبات حادثة التسمم، فلم يتمكن من مداواة إيلغا التي ترقد بسلام...

وصل الصحفي دي أومارين من هنغاريا إلى باريس في نفس الليلة التي اقترع فيها المعجبون للفوز بإيلغا، وذهب إلى حجرتها فلم يجد غير العجوز لوفرير يغط في النوم على الأريكة، فراح مسرعاً إلى باخ، الذي قصَّ عليه ما حدث في غيابه.

- لا بد أنها لاذت بالفرار... قال الصحفي بثقة.

ثم رجع في اليوم التالي إلى هنغاريا مؤمّلاً أن ينال جائزته لقاءَ المهمة التي قام بها.

وفي هنغاريا علم بخبر وفاة الفتاة التي أحبها، وكان خبر وفاتها جائزة صادمة له، فلازم الفراش، وأقام في غابة غولداغوين مصارعاً الحمّى، ليجمع معلومات من كل مكان عما حدث لإيلغا، ثم بدأ بكتابة قصة إيلغا الجميلة.

ومنذ عامٍ مضى كنت أسير خلال غابة غولداغوين والتقيت الصحفيَّ دي أومارين وقرأت قصة إيلغا التي كتبها، وها أنا ذا أنقل القصة التي قرأتها لكم.